المكان في شعر محمد المسيطير

د. حمود بن محمد النقاء

قسم اللغة العربية وآدابها– كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية

جامعة القصيم

المكان في شعر محمد المسيطير

د. حمود بن محمد النقاء
قسم اللغة العربية وآدابها – كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
جامعة القصيم

تاريخ تقديم البحث: ٧/ ٩/ ١٤٤٢ هـ تاريخ قبول البحث: ١٦/ ٤/ ١٤٤٣ هـ

ملخص الدراسة:

تمثّل مرحلة البدايات في أي مدونة أدبية قيمة تاريخية؛ لكونها حققت السبق، وأسهمت في تذليل الطريق أمام التجربة، وقد تباينت مواقف النقاد والباحثين في التعامل معها بين تجاهلها، والإقرار بقيمتها التاريخية فقط، والاهتمام بها من جانب فني، في حين يطرح هذا البحث طريقة جديدة يزعم أنها أكثر موضوعية للتفاعل مع هذه التجارب، وتتمثّل في الاهتمام بمنطلقات التجربة، أي المحفزات أو المولدات التي كانت دافعاً من دوافع الكتابة في هذه المرحلة، وعاملاً رئيساً في تشكيل المناسبة الشعرية أو اللحظة الضاغطة، ويحاول هذا البحث تطبيق هذه الطريقة على شعر الشاعر محمد المسيطير، أحد الشعراء السعوديين في مرحلة البدايات مستخلصاً بعض النتائج المتعلقة بهذه الفكرة، وتتمثل الطريقة التي يطرحها هذا البحث في محاولة فهم منطلقات هذه التجارب الشعرية، وعدم المبالغة في مساءلتها من الناحية الفنية.

الكلمات المفتاحية: المكان، محمد المسيطير، شعر محمد المسيطير.

Space in Muhammad Al-Musaiteer's Poetry

Dr. Hamoud Bin Mohammad al-Naga
Saudi Literature in Arabic Language Department
Faculty of Arabic Language & Social Studies
Qassim University

Abstract:

Associate professor of Saudi Literature in Arabic Language Department in the Faculty of Arabic Language & Social Studies at Qassim University, KSA.

The beginning phase of any literary blogs represents a historical value as it was the first attempt, and contributed to clear the way for the experiences. But the positions of critics and researchers in dealing with this phase are varied between ignoring it and acknowledging its historical value with paying attention to it from an artistic side. What makes the paper different is that it proposes a new objective way to study these experiences via revealing the motivations that lead to emerging the writing or shaping the poetic occasion or the pressing moment at this stage. Having demonstrated that, this paper, by studying the poetry of the Saudi poet Muhammad Al-Musaiteer, tries to understand the premises of these poetic experiences, and not to exaggerate in criticizing their artistic side.

key words: Space; Muhammad Al-Musaiteer ; Poetry of Muhammad Al-Musaiteer

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

فتمثّل مرحلة البدايات في أي مدونة أدبية قيمة تاريخية؛ لكونها حققت السبق، وأسهمت في تذليل الطريق أمام التجربة، ولو بصورة معنوية، وقد تباينت مواقف النقاد والباحثين من التجارب الأدبية التي تنتمي إلى هذه المرحلة، ويمكن أن ألخصها في ثلاثة مواقف رئيسة :

١- تجاهل هذه المرحلة، والتجارب التي كونتها.

٢- الإقرار بقيمتها التاريخية وحسب، من خلال الإشارة إلى موقعها التاريخي من التجربة.

٣- الاهتمام بها من الجانب الفني، الذي لم تحققه هذه التجارب أصلاً.

وفي هذا الواقع يطرح هذا البحث طريقة يزعم أنها أكثر موضوعية للتفاعل مع هذه التجارب، وهي الاهتمام بجانب من الجوانب التي تتعلّق بمنطلقات التجربة، أي المحفزات أو المولدات التي كانت دافعاً من دوافع الكتابة في هذه المرحلة، وعاملاً رئيساً في تشكيل المناسبة الشعرية أو اللحظة الضاغطة.

هذه الطريقة لا تقف عند الاعتراف بالقيمة التاريخية لهذه التجارب، ولا تبالغ في تحميلها شرط الأدبية الذي لم يتوفر فيها، لكنها تحاول التعرّف على هذه التجربة، وفهم ظواهرها، والتعامل معها بتوازن، وعلى أساس الرؤية التي تأسست عليها؛ لأمر مهم، وهو أن التجربة وإن كانت تنتمي إلى البدايات، إلا أنها ما تزال ممتدة إلى وقتنا الحالي، فثمة شعراء يصدرون اليوم دواوين شعرية تحمل مواصفات

تلك التجارب التي شكلت مرحلة البدايات.

في هذا السياق جاءت فكرة هذا البحث الذي يتناول المكان في شعر محمد المسيطير؛ بهدف تسليط الضوء على تجارب شعرية مثلت مرحلة البدايات في الشعر السعودي بوجه عام، والشعر في منطقة القصيم بوجه خاص، محاولاً فهم خلفيات هذه التجربة أو منطلقاتها بالاعتماد على مجموع شعره.

ولأن قراءة منطلقات التجربة تقوم -أولاً- على ظاهرة بارزة في مجموع التجربة، فقد اخترت المكان في شعر المسيطير؛ ليكون جسر العبور إلى أعماق هذه التجربة، مؤكداً على أن الهدف من هذا البحث هو التفاعل الذي يناسب هذه التجربة، وهو محاولة فهم المنطلقات، وليس نقد الفنيّات.

وقد قامت هذه الدراسة على مقدمة، ومدخل، وثلاثة مباحث، ثم خاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، حيث حوت المقدمة بياناً لأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وتقسيمات الدراسة، ومنهج البحث، ثم عرض المدخل لأهمية المكان في شعر المسيطير، وأبرز السمات التي جعلت للمكان حظوةً في شعره، بعد ذلك عرضت الدراسة في مبحثها الأول للمكان العام والمكان الخاص في شعر المسيطير، حيث استعرضت جملة من النماذج الشعرية التي تجلّت فيهما الأمكنة العامة والخاصة، وفي المبحث الثاني تناولت الدراسة المكانين الطبيعي والمصنوع من خلال إيراد جملة من المقتطفات الشعرية التي يتّضح من خلالها توظيف الشاعر للمكان واهتمامه به، أما المبحث الثالث فقد عرض لدلالات المكان في شعر المسيطير مركّزاً على الدلالتين النفسية والاجتماعية، بعد ذلك جاءت الخاتمة لتشمل أبرز النتائج التي خرجت بها هذه الدراسة.

وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، الذي يستعين ببعض المفاهيم الإجرائية في عدد من المناهج؛ بهدف إضاءة المكان الشعري من زوايا متعددة.

ختاماً.. أسأل الله أن يكون التوفيق قد حالف هذه الدراسة، فمنه وحده – جلّ شأنه– التوفيق والتسديد والإعانة، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

مدخل

حظي المكان بحضور كبير في المدونة الشعرية العربية، وقد جذبت هذه الظاهرة اهتمام عدد كبير من النقاد، فتمخّضت عن هذا الاهتمام مجموعة كبيرة من الدراسات التي استهدفت المكان بالاعتماد على مناهج ونظريات متعددة(١).

ولقد كان للمكان دوره في دعم التجربة الشعرية بشكل عام، إذ اعتمدت عليه في تفجير المكبوت اجتماعياً ونفسياً، فكان متنفساً لها، وداعماً ومسانداً، وهذا يقودنا إلى القول إن لهذا المكوّن / المكان أهميته في أيّ تجربة أدبية أو فكرية أو فنية.

وما يقال عن المكان في الشعر العربي، يمكن أن يقال عن تجربة المسيطير الشعرية؛ لأنها احتفت بالمكان بشكل واضح، فلا يكاد يخلو نص شعري من

---

(١) من تلك الدراسات –وهي كثيرة– ما يأتي :

– الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، د. باديس فوغالي، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، أربد، الأردن، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

– المكان في الشعر الأندلسي، عصر ملوك الطوائف، د. أمل محسن العميري، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.

– المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ٩٢هـ – ٤٢٢هـ، د. محمد عبيد السبهاني، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م.

– شعرية المكان المقدّس، دراسات في الشعر السعودي، د. حافظ المغربي، النادي الأدبي بالرياض، ١٤٢٧هـ.

– صورة المكان في شعر عزالدين المناصرة، زايد محمد الخوالدة، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.

نصوصه من ذكر لمكان أو أكثر، وهذه الأماكن تتنوّع من حيث طبيعتها الجغرافية، كما أنها تتنوّع كذلك من حيث المغزى أو الهدف الذي كان من وراء إيراد الشاعر لها، إذ يمثّل بعضها محوراً لفكرة النص الرئيسة، في حين تأتي بعض الأمكنة الأخرى بمنزلة تقلّ عن سابقتها، لكنها تمثل شكلاً من أشكال الاحتفاء بالمكان.

وإذا ما حاولنا تمثُّل أهمية المكان في شعر المسيطير، فإننا سنجد ذلك واضحاً في جوانب عديدة، ربما كان من أبرزها ما يأتي :

أ– العنونة بالمكان : وهذا مما تسهل ملاحظته في ديوان الشاعر، حيث نجد عدداً من القصائد التي حوت مكاناً في عنوانها، ومن تلك القصائد : "في ربوع القصيم"(١)، و"الكويت"(٢)، و"الرياض"(٣)، و"وادي الرمة"(٤)، و"في المحراب"(٥)، وغيرها(٦).

ولعل هذا مما يُلتقط كإشارة على اهتمامه بالأمكنة الاهتمام النابع من الوجدان؛ كي تكون منطلقاً ومَعيناً يمدّ تجربته الشعرية ويغذّيها، ذلك أن

---

(١) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، محمد بن عبدالله المسيطير، مطابع الرسالة، الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، ص ١٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٦) ينظر : المصدر السابق، ص ٢٠٤، ٢٦٧، ٢٧٥، ٣١٣، ٣٣٣، ٣٥١، ٣٥٦، ٣٦٢، ٣٨٤، ٤٢٨، ٤٤٢، وغيرها.

العنوان يعدّ في نظر كثير من النقاد العتبة الأهم في عتبات النص، كما أنه يمثّل الخطوة الأولى في التواصل مع المتلقي[١].

ب- استهلال القصيدة بذكر مكان أو أكثر : فإذا كان العنوان هو أولى عتبات النص وأهمها –كما تقدّم –، فإن المطلع –كما يراه عدد من النقاد – بمنزلة المفتاح للقصيدة[٢]، وحضور المكان في مفتاح القصيدة / المطلع، مؤشر مهم على حرص الشاعر وعنايته به، وربما كان هذا الحرص وتلك العناية سبباً في حضور عدد من الأمكنة في مطالع قصائد المسيطير، حيث إن القارئ لديوان "ليالي العمر" يلحظ أن الشاعر يستهل عدداً من نصوصه بذكر أماكن متعددة في مثل قوله في مطلع قصيدة بعنوان "تباريح"[٣]:

لأفيائكم نشتاق أرضاً ومرتعاً وتهفو إلى الوديان روضاً ومنجعاً

ويقول في مطلع قصيدة أخرى[٤]:

من حرمة البيت من قدسية الحرم من جانب الركن من خفاقة العلم

ويقول كذلك في مطلع قصيدة نظمها في عام ١٤٠٠هـ، وخاطب فيها

---

(١) ينظر : مدخل إلى دراسة العنوان في الشعر السعودي، د. عبد الله بن سليم الرشيد، نادي القصيم الأدبي، بريدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، ص ٥.

(٢) ينظر : أنا والشعر، شفيق جبري، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، ص ٦٧.

(٣) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، محمد بن عبدالله المسيطير، ص ٣٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٥١.

صاحب السمو الملكي الأمير عبدالإله بن عبدالعزيز أمير القصيم آنذاك[١]:

هكذا الرس في لقائك أنشد خلجات على الزمان تجدّد

ويقول أيضاً في مطلع قصيدة بعنوان "ديار المسلمين لنا ديار"[٢]:

لقاؤك في القصيم هوىً ووُدُّ ويومك مشرق الطلعات فرد

إلى غير ذلك من النصوص التي استهلها الشاعر بذكر الأمكنة[٣]، فالمسيطير وإن كان يدرك أن الشاعر مطالب بتجويد مطالعه؛ لما لها من أثر في نفس المتلقي[٤]، فإنه ربما رأى أن من تجويد المطلع حضور المكان فيه، خاصة حين يكون هذا المكان محوراً للقصيدة ومرتكزاً لها.

ج- اختتام القصيدة بذكر المكان : تكمن أهمية الخاتمة في أنها آخر ما يبقى في الأسماع[٥]، ومن ثم فيمكن القول إن الشاعر محمد المسيطير حينما يختم بعض نصوصه بذكر مكان أو أكثر، فإنه يتوخى إبقاءه في ذهن المتلقي؛ ليكون هذا البقاء قاسماً مشتركاً بينهما، ولعل هذا دليلٌ ضمن مجموعة من الأدلة على

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٣) ينظر : المصدر السابق، ص ٨٥، ١٠٢، ٢٥٥، ٢٦١، ٢٧٥، وغيرها.

(٤) ينظر : أسس النقد الأدبي عند العرب، د. أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٩٧.

(٥) ينظر : العمدة في محاسن الشعر وآدابه، الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق : د. محمد قرقزان، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج١، ص ٤١٥.

الحرص والعناية التي تحظى بها الأمكنة في شعر المسيطير، ومن نماذج القصائد التي ختمت بذكر الأمكنة قوله[١]:

سقاكِ الحيا يا دار برقة عاقل(٢) وروّاك أرضاً جادها الوبل أربعا

ويقول مخاطباً الشهيد الفلسطيني محمد الدّره في خاتمة قصيدة بعنوان "الدّره"[٣]:

قد رسمتَ الطريق نحو كفاح يحرس القدس يوم يطلق أَسره
وتعود إلى العروبة قدسٌ هالها الكفر في وسائل غدره

إلى غير ذلك من القصائد التي خُتمت بذكر الأمكنة[٤].

ولعل مما يجدر التنبيه عليه أن المكان حينما يرد في خاتمة القصيدة؛ فإن ذلك راجع إلى غرض نفسي –كما يراه بعضهم –، إذ إن الشاعر يسعى إلى ربط هذا المكان بالغرض الذي قيلت من أجله القصيدة؛ جذباً للمتلقي وإشباعاً لعاطفته[٥]، وهذا ما نلمسه في تجربة المسيطير الشعرية.

---

(١) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، محمد بن عبدالله المسيطير، ص ٣١.

(٢) وادٍ كبير منخفض المجرى لذلك يسميه الأقدمون "بطن عاقل"، يمرّ إلى الجنوب الشرقي من مدينة الرس، على بعد حوالي ثلاثة عشر كيلاً. ينظر : معجم بلاد القصيم، محمد بن ناصر العبودي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م، ج٤، ص ١٥٢٤.

(٣) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، محمد بن عبدالله المسيطير، ص ٨٦.

(٤) ينظر : المصدر السابق، ص ١٤١، ٢٣٣، ٣٤٤، ٤٤٧، وغيرها.

(٥) ينظر : خاتمة القصيدة في القرن الرابع الهجري – في العراق والشام، د. عبدالرحمن بن صالح الخميس، النادي الأدبي بالرياض، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص ٧٢.

د- محاورة المكان أو سؤاله أو نداؤه : من الأمور التي يمكن أن نتلمّس فيها عناية الشاعر واهتمامه بالمكان تلك الحوارات التي تدور بينه وبين الأمكنة، وتلك الأسئلة التي تأتي متتالية أحياناً، وكذلك نداء المكان وتكرّر هذا النداء، ومن الأمثلة على ذلك مخاطبته لوادي الرّمة[١]، حيث يقول[٢]:

يا أيها الوادي الذي مرّت به	**حقب السنين تُديرهن دوائر**
قل لي عن الأيام كيف رأيتها	**دولاً توالى كرّها وتغاير**
قل لي عن الماضين كيف تحملوا	**صور الكفاح تشيب فيه غدائر**
حدّث عن الدنيا وما مُلئت به	**همم وتصميم وجدّ عاثر**
اقصص لي الأيام كيف تقلّبت	**بالسالفين أوامر وزواجر**

فالشاعر يبدأ بمناداة وادي الرّمة، ذلك الوادي الذي تعاقبت عليه العصور، محاولاً معرفة أحوال الحقب السابقة وأحوال أهلها، ومن ثم نراه يُنوّع في الأنماط الحوارية من "قل لي" إلى "حدّث" ثم "اقصص"، وكأنها تأخذ بُعداً تصاعدياً فالقول في البداية ثم الحديث ثم القصة، وهذا يُشْعر بما يعتمل في نفس الشاعر من الشوق لمعرفة المزيد من أخبار السالفين وقصصهم، فهو كثيراً ما يُلحّ على الأمكنة بأسئلة عن أهلها السابقين، لا تحدوه في ذلك إلا الرغبة في محاولة

(١) وادي الرمة : يعد أطول وادٍ في شبه الجزيرة العربية، يبدأ في حرّة خيبر تجاه الجانب الغربي من شبه الجزيرة، ثم يتجه نحو القصيم، والقسم الذي يقع في القصيم هو وادي الرمة الحقيقي، ويسمى غالباً بـ "الوادي"، حيث يمر بالقرب من مدينة الرس، وتكثر حوله مزارع النخيل. ينظر : معجم بلاد القصيم، محمد بن ناصر العبودي، ج٤، ص ١٥٢٤.

(٢) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، محمد بن عبدالله المسيطير، ص ١٦٥ – ١٦٧.

محاكاة معيشتهم وحياتهم، وإن كان ذلك على سبيل الخيال، يقول في قصيدة بعنوان "رجع الصدى"[١]:

يا دار أين الذي أبلى بسكناك ... وشاد في كفه طولاً بمبناك
ناشدت يا دار أن تروي لنا خبراً ... من السنين تناهى فوق عليك
قصّي عليّ من اللّيلات أحلكها ... ومن سنا الفجر إشعاعاً برؤياك
فقد تعود بنا الذكرى إلى زمن ... نحياهُ رغداً شهيّاً في ثناياك

وحين تأتي بغداد – عاصمة الخلافة الإسلامية في أزهى عصورها – لتكون باعثاً لنظم قصيدة تعنون باسمها "يا أنتِ يا بغدان"، ولتصوّر مدى الألم والحسرة التي غمرت وجدان المسيطير نتيجة ما حلّ بها من نكبات، ومن ثم فإننا نراه يلّح في النداءات ويخلع صفات فخرٍ متعددة على بغداد، فيقول[٢]:

بغدانُ يا قمة الدنيا ورايتها ... ترفّ نصراً مبيناً بيته الشّمم
يا قلعة المجد والأيام شاهدةٌ ... عصرَ الرشيد وجيش الفتح يلتحم
يا هالة الفجر في لألاء غرته ... فجر على الحق في ليلاه والعلم
يا موطن الفخر في دنياك ملحمة ... تخطّ أسطورة التاريخ ترتسم
بغدان يا أمة يعلو مطالعها ... فجرٌ له القرب والأبعاد تلتئم
بغداد يا حاضر الدنيا وسابقها ... يا صفحة الأمس فتح زانه الحلم

وإذا ما تجاوزنا الحوار والسؤال والنداء كأدلة على عناية المسيطير بالأمكنة، فإننا نجد في بعض نصوصه تفتيتاً للمكان الكبير إلى أماكن أصغر، ثم ربط هذه

(١) المصدر السابق، ص ٢٦١ – ٢٦٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٣٤ – ٣٣٦.

الأماكن بذاته، ولعل قصيدة "فلسطين" خير مثال على ذلك، إذ يقول[1]:

قلوب أهلي على الأوطان محدقة ... وعن فلسطين عين القوم لم تنم
الدار داري وأرضي كيفما خلقت ... والأهل أهلي وذاك الطود من علمي
والحقل حقلي وغرسي في يديَّ وقد ... سقيته بدمي أو نهري السجم

فياء المتكلم في (داري، أرضي، أهلي، حقلي، غرسي) تمثّل حلقةً تربط ما بين المكان والشاعر الذي رأى أنها بمثابة جزء من ذاته، وأن ارتباطه بها يشبه ارتباط الأعضاء داخل الجسد الواحد.

ولسنا –فيما عرضناه في هذا المدخل– بصدد تحليل المكان في شعر المسيطير، أو إعطاء نتائج لهذه الدراسة، بل كل ما أردناه هو محاولة الإقناع بأن المكان في شعر المسيطير يمثّل وحده ظاهرةً ترقى لأن تكون وسيلة إلى مقاربة منطلقات هذه التجربة، بل يمكن القول إنه ليس في شعر المسيطير ما يمكن أن يضارع المكان في القيام بهذه الوظيفة.

(١) المصدر السابق، ص ٣٥٣ – ٣٥٤.

المبحث الأول: المكان العام والمكان الخاص

إن أول ما يستوقفنا في دراسة المكان في شعر محمد المسيطير، هو العموم والخصوص، الذي يتجلّى فيما يأتي :

أولاً : المكان العام :

نقصد بالمكان العام جملة من الأمكنة التي تفاعل معها الشاعر من خلال السياق الثقافي العام، فهو لم يرتبط بها ولم يزرها، لكنها حضرت في شعره من خلال الرمزيات التي تحملها أو الإحالات التي تفضي إليها، وهنا يكون التاريخ والأدب والفن عوامل رئيسة غذّت هذا النوع من الأمكنة في تجربة المسيطير الشعرية، ويمكن أن نمثّل على هذا النوع من الأمكنة بفلسطين التي حضرت في شعره، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى قضيتها التي شغلت العالمين العربي والإسلامي، وشغلت أدباءهما والشعراء على وجه الخصوص، وقد كتب شاعرنا قصيدة يعود تاريخها إلى عام ١٣٧٢هـ، يتحسّر فيها على ما حلّ بالأمتين العربية والإسلامية من الضعف والانقسام وتكالب الأعداء حيث يقول[١]:

أبكي شباب الحق في زمني كما ... تبكي فلسطين التراث الفاني
واليوم يكفينا بأنا أمة ... في حالة تُبكي بني الإنسان

فالمكان / فلسطين يحضر – فيما سبق من أبيات – من خلال المقارنة بين الماضي القوي والقيادي للأمتين العربية والإسلامية، والحاضر البائس، وتكاد هاتان الصورتان للواقعين المتباينين تنسحبان على كل النصوص الشعرية التي تحضر فيها فلسطين / المكان في شعر المسيطير، فهي الأرض المستباحة التي

(١) المصدر السابق، ص ٣٧٣ – ٣٧٤.

عاث فيها المستعمر خراباً ودنّس طهرها، بعد أن كانت آمنة مطمئنة تنعم برغد العيش وينعم أبناؤها بالأمان والاستقرار، وهذا ما صوّره الشاعر في قصيدة أخرى إذ يقول(١):

فلسطين أخنى عليها الزمان ... ودالت إلى دولة الغاصبين
شراذم في الأرض منبوذة ... ووصمة عارٍ من التائهين
ففرّ بنوها على دربهم ... وجاءوا جميعاً من اللاجئين
يضجّون ملء الليالي الطوال ... ويدعون بالويل عبر السنين
حياةٌ ولكنها من شقاء ... وضحك ولكنه من أنين

فالمكان هنا قد أخنى عليه الزمان، وتوالت عليه المصائب والشدائد، حتى انقلب إلى مكان مغتصب، وانقلب معه أهله إلى لاجئين، فصار ممتلئاً بالضجيج والشقاء والأنين، بعد أن كانت ترفرف عليه ألوية الأمن والطمأنينة.

ولا تبتعد أرض الرافدين كثيراً عن فلسطين من حيث الويلات والنكبات التي حلّت بها وخصوصاً في العقدين الأخيرين، فبعد أن كانت مصدر إشعاع للعالم بأسره، أصبحت مسرحاً لصنوف المصائب والتجاوزات، وقد حاول شاعرنا استنهاض العراق في قصيدة عنون لها بـ"الفرات"، ونشرها في صحيفة الجزيرة في ١٤٢٤/٤/١١هـ، ومنها قوله(٢):

متى يا عراق الأهل تبدو رسالة ... تعيد إلى الإسلام ما هو ضائع
وتبني لنا في كل صقع منارةً ... تنادي هلموا والكماة هواجع
فنحن عطاشٌ والحياة ذميمةٌ ... بعصر على أوطاننا يتصارع

(١) المصدر السابق، ص ٣٩٩ – ٤٠٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤١ – ٢٤٢.

فالشاعر ينادي العراق كي ينهض من كبوته، ويعود إلى سابق عهده حيث الريادة في شتى المجالات، إذ نراه يصنع مقارنة بين واقع العراق المرير، وما ينتظره منه في المستقبل، بحيث تتجلّى صورةٌ متفائلةٌ من الشاعر من خلال صنعه لمستقبل مزهر للعراق "تبني لنا... منارة".

وإذا كانت فلسطين تحضر في شعر المسيطير من خلال المقارنة بين الماضي والحاضر، ويحضر العراق من خلال المقارنة بين الحاضر والمستقبل، فإنّ لبنان قد حضرت في شعره من خلال المقارنة بين الحاضر والحاضر، إذ إن لبنان شهدت في مرحلة الحرب الأهلية مسلسلاً من الخيانات التي تتابعت عليه وعلى شعبه، وفي ذلك يقول المسيطير[1]:

صور الكفاح وشعلة الإيمان ... لبنان يا بلد الإبا المتفاني
تتطاير الأشلاء في ساحاته ... كالغيث يقذفه حمى البركانِ
صور من التقتيل شاه زمانها ... ورؤى من التدمير والحرمانِ
لبنان لا تأخذك فيهم رحمة ... من مدّعٍ أو هاربٍ بمكانِ
من باع للأعداء حبّ بلاده ... فهو العدو مطية الشيطانِ
يمضي ويغرس للشقاء فصائلاً ... للهدم والتفريق والعدوانِ

فالمسيطير وإن كان يرى في الحرب الأهلية التي دار في لبنان ما يبررها "صور الكفاح..."، إلا أنه بالمقابل يتحسّر على تلك التجاوزات التي حصلت في تلك الحرب من مثل "تطاير الأشلاء"، و "صور من التقتيل... التدمير والحرمان"، فالمقارنة بين الحاضر والحاضر، أو لنقل بين الحاضر ونفسه.

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٤٢ – ٤٤٤.

وحين يستحضر المسيطير الحضارة الإسلامية في ماضيها الأشم، فإن صورة الأندلس ترتسم في ذهنه فيقول[1]:

يا دار أندلس الإسلام أين هنا ... معالم رفّ فيها خافق العلم
دوّت على مسرح الدنيا منابرها ... تدعو إلى الله في هدي من القيم
ردّي عليّ فإني من نوادبه ... والندب قد يُنطق الأطلال من بكم

فأرض الأندلس حاضرة في ذهنية الشاعر، فهي قد شهدت حضارة إسلامية شامخة ظلت ما يقرب من ثمانية قرون، ثم سلبت هذه الأرض، وبقيت ذكراها في الوجدان، ولعل هذه الذكرى هي التي وجهت التجربة الشعورية لدى المسيطير ؛ لتخرج لنا هذه القصيدة، ذلك أن المكان – بشكل عام – يتجذّر في الذهن ويرسخ في الوجدان، إذا ما تعرّض للفقد والضياع[2].

والشاعر – من خلال الأبيات السابقة – يقارن بين حالين تتابعا على هذا المكان، فالحال الأولى هي الحال التي ساد فيها الحكم الإسلامي في الفترة من ٩٢هـ إلى ٨٩٧هـ، أما الحال الثانية فهي التي تلت هذه المرحلة، بحيث يفصلها عن الشاعر مدة تزيد عن خمسة قرون، ومن هنا فإننا لا نستطيع أن نقول إنه يقارن بين حال الماضي وحال الحاضر، ذلك أن الحالين ينتميان إلى الماضي، وإن فجرهما الحاضر بطبيعة الحال.

وأحياناً نرى شاعرنا يتناول المكان من خلال بكاء ذلك المكان والتحسّر عليه، فهو يقول في سراييفو التي أذاقها الصرب ألواناً من العذاب المتمثّل في

---

(١) المصدر السابق، ص ٣١٧.

(٢) ينظر : جماليات المكان، اعتدال عثمان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م، ص ٥١.

الإبادات الجماعية والتطهير العرقي والتشريد ونحوها[١]:

غـــداة الـروع نلقـاكِ	علـى أشـــلاء قتـــلاكِ
ونسكب دمعـــة حـــرّى	علـى أنقـاض ذكـــراكِ
سـرايفـــو إذا جئنـــا	نعـــزّي في صبـــايـــاكِ
وننشـــد أمـــة ثكلـــى	تحـدّث عن ضحـايـــاكِ
فـــلا تأســـي ويـــا أسفـــي	عليكِ علـى مصـــلاكِ

فالمسيطير – فيما سبق من أبيات – لا يقارن بين حالين، وإنما يبكي المكان الذي حلّ به الخراب، وقُتّل أبناؤه الأبرياء، ومن هنا فقد أصبح المكان المنكوب / سراييفو مُمِدّاً للشاعر بشحنات نفسية ووجدانية ومؤججاً لمشاعره وأحاسيسه؛ ولذلك فقد جاء صوت الشاعر حزيناً ومتألماً وممتزجاً بالدموع، وهو يسترجع تلك الذكريات والمشاهد المفزعة[٢].

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن سراييفو ليست بمنزلة فلسطين أو العراق التي لها مكانتها في وجدان كل عربي ومسلم، ومن ثم فإن الشاعر لا يدخل في التفصيلات، وإنما يقتصر على بكاء المكان وما حلّ به "ونسكب دمعة حرّى" على الأشلاء والضحايا وأنقاض المباني، وهذا البكاء وتلك الدموع تتوجّه إلى المكان / سراييفو من جهة، كما تتوجّه إلى ما يحويه ذلك المكان من إسلام ومسلمين، وهو ما ضمّنه الشاعر من خلال تعبيره بـ "مصلّاكِ" من جهة أخرى.

---

(١) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، محمد بن عبدالله المسيطير، ص ٢٦٧.

(٢) ينظر : المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ٩٢هـ – ٤٢٢هـ، د. محمد عبيد السبهاني، ص ٨٩.

ولا تقتصر الأماكن العامة عند محمد المسيطير على تلك التي أشرنا إليها آنفاً، وإنما هناك أماكن عامة كثيرة وردت في أشعاره من مثل : غرناطة[١]، واليمن[٢]، والشام[٣]، ومصر[٤]، وصبرا وشاتيلا[٥]، وحيفا[٦]، والهند والصين[٧]، وغيرها.

ثانياً : المكان الخاص

إذا كان المكان العام – كما أسلفت – يمثّل جملة من الأمكنة التي تفاعل معها الشاعر من خلال السياق الثقافي العام، فإن المكان الخاص – في حدود بحثنا هذا – يتمثّل في تلك الأمكنة التي ارتبط بها الشاعر ارتباطاً مباشراً، إما بإقامة أو زيارة أو نحوهما، فضلاً عن الأمكنة التي ينتمي إليها، ويمكن لنا تقسيم الأماكن الخاصة التي وردت في شعر محمد المسيطير إلى أماكن ذات قداسة من مثل : الحرم المكي، والصفا، والحجر الأسود، والمقام، والأقصى، وغيرها، وأماكن غير مقدّسة، لكنها مؤثرة في شخصية الشاعر من مثل : الرياض، ونجد، والرس، والقصيم، واليمامة، وجلاجل، والصمّان، وغيرها.

ومن نماذج المسيطير الشعرية التي حوت أماكن مقدّسة قوله في قصيدة

---

(١) ينظر : ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، محمد بن عبدالله المسيطير، ص ٣١٣، ٣١٤.

(٢) ينظر : المصدر السابق، ص ٣١٠، ٣٢٣.

(٣) ينظر : المصدر السابق، ص ٣٢٣، ٣٥١.

(٤) ينظر : المصدر السابق، ص ٣١٠، ٣٥١.

(٥) ينظر : المصدر السابق، ص ٧٥، ٣٦٧.

(٦) ينظر : المصدر السابق، ص ٦٢.

(٧) ينظر : المصدر السابق، ص ٣٩٣، ٣٩٨.

"الحمى الآمن"، وهي قصيدة نظمها الشاعر تفاعلاً مع الأحداث الإجرامية التي وقعت في الحرم المكي عام ١٤٠٠هـ، وذهبت جرّاءها العديد من الأنفس البريئة[١]:

هذه الفتنة من أين أتت ... في خيوط الفجر والفجر ضياء
الحمى الآمن من روّعه ؟ ... والحجيج الطهر في أعلى الصفاء
والمطاف السمح من أين له ... صخب القتل وغوغاء الدماء
جلّ ربّ البيت من سفاكة ... تقتل الحقّ وترمي الأبرياء
وتعالى الله عما اقترفوا ... في حمى الركن وينبوع الشفاء
زمزم والحجر في محنته ... والحطيم القلب جيّاش البكاء
الصلوات نحيب مرعب ... ضجّ منها الركن واهتزت حراء

على الرغم من أن حادثة الحرم استهدفت المكان، واستهدفت حرمته، والحرمة أمر معنوي، إلا أننا نلحظ أن الشاعر قد احتفى بالمكان أكثر من المعاني والذوات، وزاد على ذلك أن فكّك المكان، وكان بإمكانه الاكتفاء بقول : بيت الله، أو الحرم، لكنه – كما قلت – عمد إلى تفكيك المكان حيث زمزم والحجر والحطيم والركن اليماني، وتفكيك المكان لا يقتصر على النص السابق، إذ نجده في نصوص أخرى من مثل قوله[٢]:

من حرمة البيت من قدسية الحرم ... من جانب الركن من خفاقة العلم
من نبع زمزم تلتام الجراح به ... من صيحة الحق دوّت من ذرى القمم

(١) المصدر السابق، ص ٢٤ – ٢٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٥١.

وقوله كذلك[١]:

ضجّ الحطيم ونادى الركن زائره ... بالذكر يهدي قلوباً عاشها الزّلل
يجلجل الوحي في ركنيه زائره ... مشارب ما بها جدب ولا ضحل

وللمسجد الأقصى ولمأساته نصيب من شعر المسيطير، حيث نراه يشير إليه في عدد من النصوص، ومن ذلك – مثلاً – قوله في قصيدة بعنوان "ديار المسلمين لنا ديار"[٢]:

يعيش المسلمون وقد تناهى ... بهم سفك وحرمان وطرد
صراع كيفما كانوا وكنّا ... يجسّده على الساحات وغد
بكى الأقصى وقد أبلى فداءً ... ونـاء بعبئه الأدنى ولـدّ
وضجّ المسلمون وهم أسارى ... أخاديد وويلات أشـدّ

ج

فالمقطع السابق ضمن قصيدة أورد فيها الشاعر مجموعة من الأماكن العامة، ومن ثم فإن مسار الحديث فيها يتوجّه إلى مكان عام، إلا أننا نجد الشاعر ينجذب فيها إلى مكان خاص ومقدّس وهو المسجد الأقصى.

وحين نتحوّل إلى الأمكنة الخاصة غير المقدسة فسنرى أنها كثيرة ومتنوعة، كالرياض التي يقول فيها شاعرنا[٣]:

وطن يبهج النواظر حسناً ... يتخطّى الصعاب ضرب موطّد
الرياض الأُلى نحِن إليها ... فيطيب من عذبها كل مورد
أمنيات من الليالي الخوالي ... وطريف من العطاء المرشّد

(١) المصدر السابق، ص ٢٩٥.
(٢) المصدر السابق، ص ١٣٨ – ١٣٩.
(٣) المصدر السابق، ص ١٣٠ – ١٣١.

فحبّ الشاعر للرياض، وتعلّقه بها، وشوقه إليها، كان باعثاً لخروج هذا النص، ومن هنا فإنه يمكن القول إن الحنين في الأبيات السابقة هو المولّد للطاقة الشعرية المعبّرة عن المكان الخاص / الرياض، وقد يكون التشخيص – وهو " الارتفاع بالمادي ليصل إلى مستوى الأحياء في الحركة أو السلوك "[1]– لدى المسيطير وسيلة لتصوير المكان، وهذا ما تجلّى في أبيات من قصيدة ألقاها الشاعر بين يدي جلالة الملك سعود في يوم مبايعته بالحكم، في قصر الناصرية بالرياض، إذ يقول[2]:

لبس الرياض اليوم أبهى حلّة واستبدلت نار الجوى بسلام
والشعب جاء مرتلاً آياته من ناثر فيه ومن نظّام

فالملاحظ هنا عند الحديث عن مكان خاص وهو الرياض، أن الشاعر ينطلق في تصويره لهذا المكان متكئاً على ظاهرة التشخيص "لبس الرياض اليوم أبهى حلّة".

ومن الرياض إلى القصيم، إذ يقول –مخاطباً الأمير عبدالإله بن عبد العزيز أمير منطقة القصيم آنذاك– في قصيدة تعود في تاريخها إلى عام ١٤٠٠هـ[3]:

أنت منا على القصيم أمير والقصيم العملاق فيك ممجّد
بكَ يعلو القصيم أيّان يعلو من أياديك ألفة أو تودّد
فيكَ يابن القصيم نسمو انتصاراً ونعيد إلى الرؤى ما تبدّد

---

(١) الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى، د. عبد القادر الرباعي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م، ص ١٧٨.

(٢) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٤٣٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢١.

كم رنونا إلى البناء طويلاً واستبقنا الإمداد من كفّ أمجد

فالتفاعل في الأبيات السابقة بين المكان والإنسان ظاهر واضح، فالمكان / القصيم قد تكرّر أربع مرات، والإنسان / الأمير عبدالإله قد تجلّى في أربعة مواضع، وهي : "أنت منا"، و "بكَ يعلو"، و "فيكَ"، و "كفّ أمجد"، وانطلاقاً مما سبق فإننا نحسّ أن المسيطير كان حريصاً على توظيف التفاعل بين الإنسان والمكان في هذه القصيدة، ويظهر هذا جلياً في البيت الأخير، حيث الربط بين البناء الطويل وعطاء الأمير، مما يعبّر عن عمق الصلة بين الإنسان والمكان في التجربة الشعورية لشاعرنا.

ولا شك أن المكان يسهم إسهاماً كبيراً في تأجيج الشعراء على التفاخر، ذلك أن الفخر إنما هو التغني بالفضائل والمثل العليا، والزهو بالمنجزات والمكتسبات المتنوعة(١)، وهذا ما يتضح في قصيدة شاعرنا التي ألقاها في حفل افتتاح المهرجان الوطني للتراث والثقافة في دورته التاسعة عشرة عام ١٤٢٤هـ، حيث تجلّت المكانة السامقة لـ"نجد" في نفسه، فهو يرى في الانتماء إليها مصدراً للفخر والعزّة، ومن أبيات تلك القصيدة قوله(٢):

من نجد من معطيات الشعر هاتفها لحن المعانين فيه الشوق والزجل
يا موطن الفخر ماذا في ذخائره مجدٌ أثيلٌ وإنجاز ومقتبل
فيه البناء سعودي شوامخه صلب السواعد لا كدٌّ ولا ملل

(١) ينظر : المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ٩٢هـ – ٤٢٢هـ، د. محمد عبيد السبهاني، ص ٩٧.

(٢) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٢٩٥ – ٢٩٦.

إنّ الأبيات الثلاثة السابقة كانت ضمن قصيدة عُنونِ لها بـ"من نجد من معطيات الشعر"، وفيها نلحظ فخر الشاعر بالمكان / نجد، وهذا الفخر يتمظهر في قوله "موطن الفخر"، وكذلك "البناء سعودي"، ثم "شوامخه"، ومن هنا فإن نبرة الافتخار والاعتزاز بالمكان كانت هي المسيطرة، فكأنّ المكان معادل موضوعي للفخر.

ومع أن محافظة الرس تقع ضمن الحدود الجغرافية لمنطقة نجد، إلا أن الشاعر يفرد لها مساحة في شعره ؛ فهي مسقط رأسه وملاعب صباه، ومن ثم نراه يقول مخاطباً الأمير عبدالإله بن عبدالعزيز أمير القصيم آنذاك [1]:

هنا في الرس أبناءٌ وأهلٌ ... وقلبٌ نابضٌ يشجيه صدّ
يحيط بركبكم أيّان يمضي ... بجيشٍ ما له حصرٌ وعدّ
فمن يعطي الجزيل أسير حبّ ... كمن يجني المآثر وهي حمد

فالمكان / الرس يمثّل مسقطاً لرأس الشاعر، ولذلك فإنّ الأبيات تتأسس على الارتباط القائم بين ذات الشاعر والمكان، وهذا ما جعله يستدعي الأبناء والأهل والقلب النابض، ونحوها، وتُماثل الأبيات السابقة أبياتٌ أخرى في قصيدة ألقاها بين يدي الأمير سلطان بن عبد العزيز، وذلك في ١٤١٩/٥/١٦هـ[2]:

أبا الأفراح يا سلطان مجدٍ ... أثيلٍ بات يصحبه الخلود
هنا في الرس أبناءٌ وأهلٌ ... وجيلٌ في مواقفه نشيد

(١) المصدر السابق، ص ١٣٥ – ١٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٧ – ١٤٨.

فالمكان / الرس مرتبط ارتباطاً وثيقاً بذات الشاعر، ذلك أن هذا المكان موطن للأبناء والأهل، وهو أيضاً موطن لجيل يتميّز بمواقفه البطولية المشرّفة، التي تجلب الفخر وتستدعي التباهي.

ومع أن المكِّون المكاني الواقعي سيطر على تجربة محمد المسيطير الشعرية، فإننا نجد الشاعر قد التفت إلى تخييل المكان الواقعي، ومن ذلك على سبيل المثال قوله في الأمير فيصل بن بندر بن عبد العزيز(١):

فيصلٌ أنت يا أمير الأماني إن نناديك يستجيب النداءُ
أنت في الرس في مراتع مجدٍ صحصحان(٢) وسبسبٌ(٣) وقواءُ(٤)

فالمكان واقعي (الرس)، لكن هذا المكان ينتقل إلى درجة المتَخيّل في قوله "مراتع مجد"، ثم وصفها بالصحصحان والسبسب والقواء، إي إنها صحصحانٌ وسبسبٌ أي إنه يمثل أرضاً مستوية، وهذه الأرض قواءٌ أي لا أحد فيها، وهنا نلحظ كيف أن عملية التخييل أُريد لها أن تُبرز هذا المكان الواقعي عن طريق

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١.

(٢) الصحصحان : الأرض المستوية الواسعة. ينظر : لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، حققه وعلّق عليه ووضع حواشيه : عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، مادة (صحح)، المجلد الثاني، ص ٦٠٠.

(٣)السبسب : الأرض المستوية البعيدة. ينظر : لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة (سبسب)، المجلد الأول، ص ٥٣٤.

(٤) قواء : لا أهل فيها، وأقوت الدار إذا خلت من أهلها. ينظر : لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة (قوا)، المجلد الخامس عشر، ص ٢٤٤.

تغييب جميع العوامل التي تمنح المكان – عادة – قيمته، بما في ذلك الإنسان نفسه.

وإذا كان التخييل في البيتين السابقين يقوم على إبراز المكان وتغييب الإنسان، فإننا نجده في القصيدة ذاتها يخيّل المكان عن طريق التشخيص – وهذا الأمر يتصل بفكرة الربط بين المكان والإنسان التي ألحّ عليها المسيطير في عدد من قصائده – حيث يقول في القصيدة[1]:

فارفع اليوم للقصيم بناء كأبان(٢) بناؤه الكبرياء

مشمخرّ (٣)الخيشوم(٤) يعلو في عرانينه(٥) حمىً واعتلاء ارتفاعاً

وقفت دونه صروف الليالي والسياج المنيع فيه الوقاء

فالشاعر – من خلال الأبيات السابقة – يرسم أبعاداً لمكان معنوي، وهذا

---

(١) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٢٠ – ٢١.

(٢) جبل من أشهر جبال المنطقة في القديم والحديث، ويقع إلى الغرب من مدينة الرس، على بعد حوالي ٥٠ كيلاً. ينظر : معجم بلاد القصيم، محمد بن ناصر العبودي، ج١، ص ٢٢١.

(٣) المشمخر : الطويل من الجبال. ينظر : لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة (شمخر)، المجلد الرابع، ص ٤٩٦.

(٤) الخيشوم : أقصى الأنف. ينظر : لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة (خشم)، المجلد الثاني عشر، ص ٢٠٧.

(٥) العرانين : جمع عرنين وهو أول الأنف حيث يكون فيه الشّمَم. ينظر : لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة (عرن)، المجلد الثالث عشر، ص ٣٤٣.

المكان "يتشكّل بإطار التركيب المجازي للغة الشعرية"[١]، بحيث لا يمكن إدراكه إدراكاً مباشراً، ولكنه يفسَّر في الذهن من خلال الصورة المتولّدة فيه[٢].

إنّ المكان المتخيّل عند المسيطير إنما هو تفريع من المكان الواقعي، غايته التعبير عن الارتباط الوجداني بهذا المكان، والدليل على ذلك أن هذا التفريع لم يظهر إلا في الأمكنة الخاصة التي ارتبط بها الشاعر.

***

(١) الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي، د. حيدر لازم مطلك، دار الصفاء للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م، ص ١٦١.

(٢) ينظر : المرجع السابق، ص ١٦١.

المبحث الثاني : المكان الطبيعي والمكان المصنوع

حين ننظر إلى الأمكنة الواردة في شعر محمد المسيطير –من جانب آخر– نجد أنها لا تخرج عن دائرتين، يمثلهما : المكان الطبيعي، ونقصد به تلك الأمكنة التي لم تصنعها يد الإنسان، كالجبال والأودية ونحوهما، والمكان المصنوع، وهي الأمكنة التي كان للإنسان أثر في صناعتها.

أولاً : المكان الطبيعي

تعدّ الجبال في طليعة الأمكنة الطبيعية التي وردت في شعر المسيطير، وهي عنده مرتبطة – بوجه عام — بالأنفة والعزة والكبرياء، إذ نراه يشير إلى جبل أبان فيقول(١):

فارفع اليوم للقصيم بناء ... كأبان بناؤه الكبرياء
مشمخرُّ الخيشوم يعلو ارتفاعاً ... في عرانينه حمىً واعتلاء
وقفت دونه صروف الليالي ... والسياج المنيع فيه الوقاء

هذه الأبيات الثلاثة تندرج ضمن قصيدة بعنوان "في ربوع القصيم"، ومناسبتها أنها قيلت في حفل أقامه أهالي محافظة الرس على شرف الأمير فيصل بن بندر بن عبد العزيز أمير منطقة القصيم آنذاك بمناسبة عيد الفطر المبارك، ومن ثم فإن هذه القصيدة ليست من القصائد التي ولدت في لحظة ضاغطة مرتبطة بالمكان، ولكن لأنّ المكان الطبيعي جزء من التجربة الشعرية للمسيطير، وليست الشعورية وحسب، فقد جاء المكان الطبيعي في حقل المشبه به الذي

(١) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٢٠ — ٢١.

يعد في أدبيات البلاغة أعلى رتبة من المشبه "فارفع اليوم للقصيم بناء كأبان"، ولم يكتفِ بالتشبيه بالمكان الطبيعي، بل زاد على ذلك أن صوّر ذلك المكان، فهو جبل مشمخر عالٍ، وقفت دونه نوائب الدهر وشدائده، كما أنه يمثّل حصناً وملاذاً لكل خائف.

ولعل من المناسب الإشارة هنا إلى أن المكان الطبيعي قد استأثر بخمسة أشطر –من الأبيات الثلاثة السابقة– في حين اقتصر المكان المصنوع على شطر واحد وهو قوله "فارفع اليوم للقصيم بناء".

ويحضر المكان الطبيعي كي يكون وسيلة للشاعر للإبحار في عوالم الحنين، وتصوير أحاسيسه وانفعالاته التي يشعر بها تجاه ذلك المكان(١)، يقول المسيطير معبّراً عن حنينه للماضي(٢):

كم ذا نَحِنُّ إلى الأيام يجمعنا ... دهرٌ ببهجة أفياء ووديان

وكيرُ(٣) تدعو الورى دوماً خياشمه ... وفي خزاز(٤) هدى من طود بنيان

---

(١) ينظر : المكان في الشعر الأندلسي، عصر ملوك الطوائف، د. أمل محسن العميري، ص ٢٩٣.

(٢) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٤٤٠.

(٣) كير : جبل أحمر مع ميل إلى السواد، يقع في الجنوب الغربي من ناحية الرس، وإلى الشمال من جبل خزاز المجاور لبلدة دخنة، وهو يرى على البعد ؛ لأنه واقع في أرض مرتفعة، وهو مستطيل بعض الاستطالة من الشمال إلى الجنوب، وتسميته قديمة لم يتغير منها شيء. ينظر : معجم بلاد القصيم، محمد بن ناصر العبودي، ج٥، ص ٢١٣٦.

(٤) خزاز : جبل أحمر واقع إلى الجنوب من مدينة الرس، على بعد ٤٩ كيلاً تقريباً، ويبعد عن بلدة دخنة بحوالي ٥ أكيال. ينظر : معجم بلاد القصيم، محمد بن ناصر العبودي، ج٣، ص ٨٨٩.

إن المكان الطبيعي في البيتين السابقين يرتبط بالعاطفة؛ ليكون وسيلة للتعبير عن حالة التواصل بين الذاكرة والشعور، فالفعل المضارع (نحنُّ) يُعبّر عن حنين متواصل للماضي، ذلك الماضي الذي يتّصف بالبهجة والانسجام، لكن التعبير سرعان ما يلتفت بفعل تكوين التجربة الشعرية التي أشرتُ إليها سابقاً إلى المكان الطبيعي ؛ ليكون هو القناة التي يمرّ من خلالها المعنى، وهو ما تجلّى في : "وديان"، و "كير"، و "خزاز".

ومما يؤكد انغراس المكان الطبيعي في تجربة الشاعر، وإسهامه في تكوين تلك التجربة، مجيء جبلي كير وخزاز في قصيدة أخرى، مرتّبين على هذا النحو، وذلك في قصيدته "ما أروع الأمس"، إذ يقول فيها[1]:

هنـاك رامـــة(٢) والآرام هـائمـة بين الرمـال على أطـلال ماضيه
يشدّهـا كـير في داجي ملامحـــه ويستبيهـــا خـزاز في تعـاليـه

ومما يلفت الانتباه هنا ارتباط الشاعر بالجبال – بوصفها أحد مكوّنات الأمكنة الطبيعية – أكثر من ارتباطه بأيّ مكوّن طبيعي آخر، ولعلنا – إضافة إلى ما سبق من شواهد – نشير للتدليل على هذه الملحوظة إلى قصيدته "مواكب في ركب الحياة" التي نظمها بمناسبة افتتاح الطريق الذي يربط ما بين الرياض والحجاز على شرف جلالة الملك فيصل – يرحمه الله – عام ١٣٨٦هـ، فالمسيطير استعرض في القصيدة طريق الرياض الحجاز، ولكنه توقّف عند جبلي

---

(١) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٤٢٣.

(٢) رامة : وهي منطقة رملية مرتفعة، يميل لون رملها إلى اللون الأحمر، وتقع في منطقة القصيم في الجهة الجنوبية الغربية من مدينة عنيزة، وإلى الجنوب الشرقي من مدينة الرس، وإلى الجنوب من مدينة البدائع. ينظر : معجم بلاد القصيم، محمد بن ناصر العبودي، ج٣، ص ٩٨١.

طويق[١]وثبير[٢]بوصفهما معلمين بارزين في هذا الطريق، حيث قال[٣]:

فيربط شرقي البلاد بغربهـا ... كشريان قلبٍ بالحياة يسيـر
يجرُّ على الصُّمان(٤) في عرصاته ... فيحيا طويق مـرةً وثبيـر
هو الخط يذكي في البلاد حياتها ... ويمنح أهليها الحيـاء وينيـر

ويتأكد الارتباط بين ذاكرة الشاعر والأمكنة الطبيعية في قصيدته "تبسم" حيث يقول[٥]:

أهـاجتك يـا قلب تلك الذكـر ... فـأصبحت في قلـق أو ضجـر
وبتّ رهـين الأسـى والفـراق ... لطيب المغـاني وعهـد الصغـر
كأن لم يكن بين تلك الـربـوع ... رفيف منـىً أو حـديث سمـر

---

(١) طويق : جبل اليمامة الأشم، يبدأ من رمال (الثويرات) شمال الزلفي، ويذهب مجنباً حتى يندفن طرفه في الربع الخالي جنوباً، أي بما تقدّر مسافته بألف كيل، فطرفاه تبتلعهما الرمال شمالاً وجنوباً، وفيه وحوله تنتشر المزارع والمدن والقرى، وتسيل منه عشرات الأودية الكبار. ينظر : معجم اليمامة، عبدالله بن محمد بن خميس، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م، ج٢، ص ١١٧.

(٢) ثبير : هو الجبل الذي يقابل حراء من الجنوب، ويشرف على منى من الشمال، وهو أشمخ جبال مكة، تراه وأنت تدخلها من الغرب ولا ترى غيره. ينظر : معجم معالم الحجاز، عاتق بن غيث البلادي، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، ج٢، ص ٦٩.

(٣) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٢٢٤.

(٤) الصُّمّان : منطقة تقع شرقي (الدهناء)، وجنوبي (وادي الباطن)، وغربي (وادي المياه)، وشمالي (المنطقة الشرقية)، في المفصل ما بين (الدهناء) و (الفروق) يتداخل مع منطقة (الصُّلْب)، وهذه المنطقة (الصُّمّان والصُّلْب) حزون متداخلة وقفاف وحتائف، تتخللها رياض ومستقرات مياه وقيعان. ينظر : معجم اليمامة، عبدالله بن محمد بن خميس، ج٢، ص ٧٨.

(٥) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ١٦٩.

ولم يكُ فوق صخور القشيع(١) وكثب برامة يومٌ أغر

نلحظ في الأبيات السابقة أن التعبير ينبني فيها على عدّة مكوّنات، يمكن ترتيبها على النحو الآتي :

١- الذاكرة والمذكِّر، وأعني به الدافع إلى عملية التذكّر.

٢- ربط المتَذَكَّر بحالة إيجابية، حيث طيب المغاني، ورفيف المنى، وحديث السمر، واليوم الأغر.

٣- ربط هذه الحالة بالمكان الطبيعي "فوق صخور القشيع وكثب برامة".

٤- التعبير عن أثر الذكرى في وجدان الشاعر، حيث هيجان القلب، والقلق والضجر والأسى والفراق.

ولا شك في أن ظهور هذه المكوّنات في أكثر من قصيدة، ودورانها جميعاً على المكان الطبيعي ابتداءً أو انتهاءً تشفّ عن أثر الأمكنة الطبيعية في تكوين طاقة الشاعر، وجعْلِها وفيّة لها، ومعتمدة عليها في التعبير عن موضوعاتها وقضاياها، وهذا ما يمكن أن نلمسه في قصيدته "تباريح"، تلك القصيدة التي ظهرت فيها الوديان بوصفها جزءاً من خريطة الأمكنة الطبيعية، وفيها يقول(٢):

لأفيائكم نشتاق أرضاً ومرتعا ونهفو إلى الوديان روضاً ومنجعا

وتخفق فينا للقلوب جوانح أمضّ بها التبريح قلباً وأضلعا

---

(١) القشيع : ويقال بصيغة التثنية (القشيعان) مضغَّر (القشع)، وهما جبلان صغيران أحمرا اللون مع ميل إلى البياض، يقعان إلى الجنوب من مدينة الرس، على بعد ٨ كيلات تقريباً، وإلى الشمال من وادي العاقلي (عاقل قديماً). ينظر : معجم بلاد القصيم، محمد بن ناصر العبودي، ج٥، ص ١٩٩٠.

(٢) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٣٠.

فلله في واديك روضة عاشق تعانقُ فيها الحب مغنى ومرتعا
فللحب في وادي البِطَاح هواتف سقتنا من اللذات حلواً وعلقما

والمتأمل للأبيات السابقة يلمس فيها التعبير عن الوديان بصيغة الجمع في البيت الأول "نهفو إلى الوديان"، ثم بالمفرد مضافاً إلى المخاطب أو جزء منه في قوله "في واديك"، ثم تأتي الصيغة التعريفية الصريحة حيث التعبير في البيت الأخير عن وادٍ بعينه هو وادي البِطَاح، فالشاعر ينتقل من أودية إلى وادٍ بعينه، ثم يربط هذا الوادي بالذات حين يقول "سقتنا من اللذات".

وانطلاقاً مما سبق فإنه يمكن القول : إنّ المكان الطبيعي في مجمل تجربة المسيطير الشعرية يمثّل نقطةً أخيرةً، يحفر الشاعر في كل أبياته حتى يصل إليها فيغلق بذلك قصيدته، مما يمكن – أيضاً – أن نعدّ معه المكان الطبيعي مبتدأ الطاقة الشعرية ومنتهاها في آنٍ واحد، وحركة كتابة القصيدة لديه تأتي في هذا السياق بشكل دائري تنتهي حيث تبتدئ تقريباً، وهذه الرؤية قد تساعدنا على تفسير ظواهر متعددة في هذه التجربة، منها : حديثه إلى المكان الطبيعي كما في قصيدته التي تجلّى المكان الطبيعي في عنوانها "وادي الرمة"، وفيها يقول(١):

لك في فم الدنيا حديث عامر وعلى ضفافك للبيان منابر
وبجانبيك مفاتنٌ قدسيةٌ فيها لمعتمر القريض مشاعر
يا أيها الوادي الذي مرّت به حقب السنين تديرهن دوائر

وكذلك حديث المكان إليه، كما جلّاه بوضوح في قصيدته "على ضفاف

(١) المصدر السابق، ص ١٦٤ – ١٦٥.

النيل"، ومن أبياتها[1]:

وما أنا في روض الهوى غير عاشق ... تعلّله الأزهار بالبسمات

إذا افتر زهر الروض شوقاً لمثله ... وهبّت له الأسحار بالنسمات

وباحت له الورقاء في شجو قلبها ... وبثّت له الشكوى بدون أنات

تراني أنا المعنيّ شوقاً مبرحاً ... وإني أنا المكلوم دون أسات

ثانياً : المكان المصنوع

إنّ ما قلناه في دراستنا للأماكن الخاصة التي وردت في شعر محمد المسيطير، وتقسيمنا لها إلى أماكن ذات قداسة وأماكن غير مقدّسة، يمكن أن ينسحب على حديثنا هنا عن المكان المصنوع، فالأماكن المصنوعة هي جملة الأماكن التي ابتناها الإنسان، وعكس من خلالها رؤيته وطبيعته، وهذا النوع من الأمكنة مكوّن مهمٌ في معرفة أحوال الزمن، وطبيعة الناس فيه، وهي تبعاً لذلك وعاء ثقافي مهم.

ومتابعة لما أسلفنا، فقد حظي المكان المصنوع بمساحة واضحة في شعر المسيطير، ويمكن أن نقسمها فيه قسمين : أماكن مقدسة وأماكن غير مقدسة، ومن النصوص التي تناولت القسم الأول قصيدته التي نظمها بمناسبة مرور عقدين على تولي خادم الحرمين الملك فهد – رحمه الله – مقاليد الحكم في هذه البلاد، وضمّنها إشادته بالتوسعة الكبيرة للحرمين الشريفين في عهده، ومن أبياتها[2]:

عصر البناء على العشرين راسية ... لها الوفاء مجيد دونه العظم

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٢٨ – ٤٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤٥ – ٣٥٠.

يـا خـادم الحرمين الغـر ديدنــه	رفع البنــاء طويــلاً دونـه القمـم
في مكــة الأم بيتٌ في دعـائمــه	ركن الهدى وهدى الخلّاق يلتئم
تطوف من حولـه الأرواح خاشعة	في رهبة يلتقيها العفــو والكــرم
يبقى البناء رفيعــاً في دعائمــه	ما باركتــه عيــون ما بهــا سقم
والتوسعات عطاء شاهــد فطـن	للمسجـدين يكـون البذل والهمـم
في طيبة النور نهــر من روافــده	روح من الخلد يشفـى عندها الألم
تعلو مآذنهـا الساحـات داعيــة	إلى السـلام فـلا هــمّ ولا وهــم
عقدان مرّا على الإنجاز طارفــه	يبقى تليداً فمــا يرتـاده الهــرم

وفي هذه الأبيات نلحظ كيف يتجسّد المكان أولاً من خلال مفردات : "البناء طويلاً"، و "بيتٌ في دعائمه"، و "البناء رفيعاً في دعائمه"، و "التوسعات"، و "تعلو مآذنها الساحات".

ثم نلحظ كيف أن رفع البناء (الذي يعدّ أسَّ المكان المصنوع) معنى من المعاني المستحقة للمدح، إذ ربط الشاعر بين المكان المصنوع وجملة من المعاني والقيم، كما في ربطه بين توسعة الحرم الشريف والمسجد النبوي ولقب خادم الحرمين الذي اختاره الملك فهد لنفسه معبّراً — في خطابه التلفزيوني الشهير — عما يختزنه من معنى جليل.

ومن ذلك ربطه التوسعة بخصلتي البذل والهمة، والمآذن العالية بالسلام والروحانية، ليأتي الربط الأكثر عمقاً في آخر هذه الأبيات بربط هذه التوسعة الكبيرة بالمدى الزمني الذي عبّر عنه الشاعر من حكم الملك فهد (عقدين من الزمن) ثم ربطه بالقدامة بوصفها معنى ذا قيمة في المكان المصنوع "طارفه يبقى تليداً"، وبالجدة أيضاً بوصفها معنى دالاً على قدرة هذا المكان المصنوع على

عبور الأزمنة، والبقاء حياً وقادراً على التأثير.

وفي كل ما سبق تتجلى سمة مهمة في التفاتة الشاعر للمكان المصنوع الذي يحمل طابع القداسة، ألا وهي النظر إلى هذا المكان بوصفه تعبيراً عن القيم والمعاني الرفيعة، التي تتجاوز عالم البشر لتلتحم بالسماء، ممثلة بالقيم الإسلامية كعمارة الأرض، ونشر السلام، وتأمين الإنسان، وغيرها.

وفي هذا السياق يمكن أن نشير إلى قصيدته "القدس"، فمع أن صيغة إهدائها توجهت إلى مهدى إليه معيّن، وهو "طفل الحجارة في صراعه المنتصر مع المعتدين" إلا أننا نلحظ كيف استدعى الشاعر فيها الأقصى بوصفه مكاناً مصنوعاً يمنح بما له من خصوصية هذا الطفل القوة وروح المواجهة[1]:

هـو الأقصـى من الرحمـات بيتٌ ... ومسـرى أحمـد خلـق رحيـم
حمـاه الله من رجس وكفـر ... وتدنيـس وتدميـر يـدوم
(١)

وأما في القسم الثاني الذي تمثله الأمكنة المصنوعة العامة، فإننا نجد لمعاقل العلم والثقافة حضورها البارز، من مثل : الكليات، والمعاهد، والمدارس، والنوادي الأدبية، ونحوها، ومنذ ذلك قصيدته بمناسبة افتتاح النادي الأدبي بمعهد الرياض العلمي في ١٣٧٢/٣/١٨هـ، التي قال فيها[2]:

نادٍ كزهر الربا افترّت ثناياه ... قد صاغه الله من حسن وروّاه
يمثّل النبل في أبهى مظاهره ... ويرسم الفن في أجلى مزاياه

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٦٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١٤.

فطلعة السعد في أبهى مظاهره طوراً وطوراً بطرف الحسن ترعاه

ففي وصف النادي هنا (يقصد مكان النادي) تشبيه بالجمال الذي يلمسه الشاعر في الطبيعة، لكنه في البيت الثاني يعود إلى ربط هذا المكان بقيمة النبل حيث العطاء الإنساني المتدفق الذي يتجلى هنا في الإنتاج الأدبي والفني.

وإلى شيء من هذا مال الشاعر في قصيدة ألقاها بين يدي جلالة الملك سعود في يوم مبايعته بالحكم، نيابة عن طلاب معهد الرياض العلمي فقال(١):

والمعهد العلمي في لألائه قبس من الإجلال والإكرام
أنشأته للعلم ثم رعيته وسقيته الإخلاص سقي غمام
فغدا بفضلك مورداً في روضة يحيا بها متفتّح الأكمام

ففي هذه الأبيات يرسم الشاعر صورة واسعة للمعهد معتمدة على أبعاد متنوعة من المكانين الطبيعي والمصنوع، مثل : "أنشأته"، و "رعيته"، و "سقيته"، و "مورداً في روضة"، و "متفتح الأكمام"، وهذه سمة أخرى في المكان المصنوع لدى الشاعر، إلا وهي تقليص المسافة بين المصنوع والطبيعي، والنظر إلى المصنوع على أنه امتداد للطبيعة بما حوت من مكونات جمالية متعددة.

وكل ما سبق يشفّ عن تجاوز الشاعر للمكان المصنوع إلى المعاني المتصلة به، أو يمكن أن تعبّر عنها، ومع احتفائه الكبير بالمكان وجماليات بنائه، وعصريته بمقاييس مرحلة إنشاء القصيدة، فإن كل ذلك يتوارى أمام سطوة المعنى

(١) المصدر السابق، ص ٤٣٤ - ٤٣٥.

على تجربته الشعرية، ففي قصيدة له بعنوان : "المشرّد"، نراه يقول – متحسّراً على حالة التفرّق والانقسام التي يعيشها بنو العرب، فيقول معبراً عن ضآلة القصور والتطاول في البنيان أمام التراجع الثقافي والحضاري والعسكري والاقتصادي للعرب[١]:

يا ضيعة العُرب أن ظلت ممزقة ... وعاث فيها الردى والجبن والخور
نبي القصور ولا ندري أنسكنها ... أم أنها جدثٌ للحتف ينتظر
وأمة العُرب في شتى مرابعها ... لم يبقَ منها سوى أنفاس تُحتضَر

وبجانب ما سبق فإننا نجد الشاعر يخصّ عدداً من المدن بقصائد مستقلة، من مثل الرياض[٢]، والقدس[٣]، وبغداد[٤]، وغرناطة[٥]، ولعل الشاعر بهذا يتخذ من المكان وسيلة للحنين والذكريات من جهة، ودعوة إلى الاجتماع والتوحّد من جهة أخرى[٦].

وقد يعمد المسيطير إلى المكان المصنوع –أحياناً– ليجعل منه بُعداً من الأبعاد المعبّرة عن الشخصية، كما نرى في تشبيهه للملك عبدالعزيز –طيّب الله ثراه– بالقلعة والحصن في القوة وتحقيق الانتصارات[٧]:

---

(١) المصدر السابق، ص ١٨٥ – ١٨٦.
(٢) المصدر السابق، ص ١٢٥.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٦٢.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٣٣.
(٥) المصدر السابق، ص ٣١٣.
(٦) ينظر : صورة المكان في شعر عزالدين المناصرة، زايد محمد الخوالدة، ص ٦٥.
(٧) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٢١٤.

يا ابن عبدالعزيز إنّك حصن	**وقلاع مليئة بالذخائر**
كلما أحرزت مساعيك نصراً	**قمت تسعى لخير نصر مبادر**
لكأن الأيام وهي صراع	**ملّكتك القياد وهي دوائر**
وكأن الآمال سر خفي	**نمقتها يد القدير لظافر**

وهذا بلا شك يعبّر عن المساحة التي يحتلها المكان بأنماطه المتعددة من تجربته الشعرية، فهو حاضر بوصفه طبيعة، وحاضر بوصفه صنعة، وهو في الحالين وصلٌ بين هذا وذاك، وجملة معبّرة عن معنى، أو خالقة لمعنى.

إن المكان في هذه التجربة الشعرية ليس شيئاً عابراً يمكن تجاوزه، بل هو الشاعر بتكوينه الثقافي، وهو الشاعر في حالة تفاعله مع الذوات والقيم وكل ما يحيط به.

***

المبحث الثالث: دلالات المكان في شعر المسيطير

حين نبحث في المعنى اللغوي لكلمة " دلالة "، فإننا نجد في معاجم اللغة " الدليل : ما يُسْتدلُّ به. والدليل : الدال. وقد دلّه على الطريق يدُلّه دَلالة ودِلالة ودُلولة "(١).

وأما في الاصطلاح، فإن الدلالة تعني : كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، ومن ثم فإن الأول دالٌ، والثاني مدلولٌ(٢).

ومن خلال استعراضنا للنماذج الشعرية الواردة في المبحثين السابقين، وغيرها من أشعار المسيطير، فإننا نستطيع القول : إن دلالات المكان في شعره تكاد تنحصر في دلالتين، هما : الدلالة النفسية، والدلالة الاجتماعية، على أن الدلالة النفسية هي الأكثر والأبرز إذا ما قورنت بالدلالة الاجتماعية.

أولاً : الدلالة النفسية

تبيّن لنا من خلال المبحثين السابقين أن الأماكن متنوّعة في شعر المسيطير، فهناك الأماكن العامة والأماكن الخاصة، وهناك الأماكن الطبيعية والأماكن المصنوعة، ولكل نوع مكاني دلالته الخاصة التي تشفّ عن حالة نفسية مرّ بها الشاعر إبّان تشكّل هذا النص أو ذاك، ومن ثم فإن إيراد المسيطير لمكان بعينه

---

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، حققه وعلّق عليه ووضع حواشيه : عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، مادة (دلل)، المجلد الحادي عشر، ص ٢٩٨.

(٢) ينظر : التعريفات، للجرجاني، حققه وقدّم له ووضع فهارسه : إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، القاهرة، (د.ت)، ص ١٣٩.

– وهذا في المجمل – لم يكن صدفة أو عبثاً، بل كان نتيجة وضع نفسي، وهذا الوضع قد يكون متعلقاً بذاته، وقد يكون شعوراً نفسياً تجاه أمر أثّر في هذه الذات(١).

ويمكن أن نتمثّل الإطار العام للدلالة النفسية للمكان في شعر المسيطير من خلال التوقف عند **الفخر** بوصفه معبّراً عن حالة انفعالية مرّ بها الشاعر تجاه ذاته أو قبيلته أو أرضه أو وطنه، وقد تجلّى الفخر (بما هو حمولة نفسية) في اختيار الشاعر لبعض الأمكنة، وبخاصة تلك التي تقع ضمن الحدود الجغرافية لبلادنا، فكل مكان على أرض هذا الوطن كان يصله بهذا البعد النفسي المترع بالفخر، ويكوّن به أو فيه سياقاً للفخر والتباهي، والأمثلة على هذا كثيرة، منها قوله في وطننا الكبير المملكة العربية السعودية(٢):

يا موطن الفخر ماذا في ذخائره ... مجدٌ أثيلٌ وإنجاز ومقتبل
فيه البناء سعودي شوامخه ... صلب السواعد لا كدٌّ ولا ملل
شأن المفاخر تهدي عين جاحدها ... بالمكرمات إذا ما رابها الخيل
عفواً فداك أبي يا موطنا هتفت ... فيه الرسالات والأفواج والنصل

لا تحمل هذه الأبيات بين جنبيها ما يشير إلى مكان ذي ملامح مكتملة، غير أن التعبير عن الوطن بهذا المعجم المادي المتمثّل في : "مجد"، و "إنجاز"، و "البناء"، و "شوامخه"، و "صلب السواعد"، و "هتفت فيه الرسالات"، يجعله

(١) ينظر : المكان في شعر البردوني، دراسة موضوعاتية، خالد بن عبدالعزيز اللعبون، مطابع الحميضي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م، ص ١٦٧.

(٢) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٢٩٦.

متجسّداً في حالة مكانية، إن لم تكن هذه الحالة معبّرة عن مكانٍ بعينه فهي معبرة بالضرورة عن حالة استوعبها مكان، فالأبيات هنا قد لا تشير إلى الوطن بما هو مكان له حدود ونمط وحيز وفضاء، لكنها مثقلة بالتعبير عن حالة متصلة بالمكان، يمثلها عبور الوطن مكاناً وأناسيَّ من مرحلة إلى أخرى، من التاريخ البعيد إلى الحاضر، ومن اللاشيء إلى اللاحدّ من الأشياء.

إنها أبيات تغيّب المكان، أو تأخذ منه مسافة كافية تمكّن الشاعر من إعادة رسمه في لوحة لا نرى فيها إلا ما يدعو إلى الفخر، وهذا ما نجده في الكثير من الأبيات التي يعبّر فيها شاعرنا عن الوطن، كما في قوله(١):

وطـن يبهـج النواظـر حسنـاً يتخطّى الصعـاب ضرب موطّـد

بل إن الطاقة النفسية الكامنة في سياق الفخر في شعر المسيطير تتكثّف أحياناً، وتتجاوز المادي إلى المعنوي، ويغيب معها المكان أو يتعتّم بما هو تضاريس وحدود وحيّز وفضاء، ليحضر بوصفه معنى، لا يمكن أن ينتظم إلا في سياق الفخر، وهذا ما نجده في قصيدته عن الرياض، إذ يقول(٢):

لغـة الأمس يـا ريـاض المعالـي ونشيـد الزمـان من كل منشـد
وعرين الأسـود من كل شبـل أغلب يحـرس الحمـى بمهنّـد
صـور من مفـاخـر اليـوم تحكـي صـولـة الأمس في بنـاء منضـد

وحجر الزاوية في هذا المكان المؤطر بالمعنى هو الزمن حالاً في مكان، وهذا –كما أسلفنا– استبعادٌ للمكان من أجل تقريبه ذهنياً، بالقدر الذي تكبر فيه

(١) المصدر السابق، ص ١٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٨.

الملامح، ويظهر المظروف منه على السطح، وهذا ما نجده متفرقاً في هذه الأبيات، ومجموعاً في الشطر الثاني من البيت الأخير "صولة الأمس في بناء منضد"، حيث يظهر الزمن وهو حال في "بناء"، أي : مكان.

وتصل هذه الصورة من التعبير أبعد نقطة في قصيدته عن الرس، التي يقول فيها(١):

لم يعد للكلام في الكون ذكر ... فحديث الأعمال أبقى وأفيد
والحياة التي تروح وتغدو ... هي ذكر وخالد ومخلّد
نحن في الرس أمة يتغنّى ... بأساطيرها الزمان ويشهد

فهنا لا يستبعد الشاعر المكان – بما هو معطى مادي – بل ينسحب هو من المشهد عن طريق نفي قيمة الكلام، أو نفي حاجة الشاعر إليه، فلم يعد للكلام ذكر، والزمان هو الذي يتغنى بالرس، والحديث الأبقى هو حديث الأعمال، والذكر الخالد هو الذي يمضي مع الحياة.

إنه الفخر حين يكبر في نفس الشاعر، ويحجبه حتى عن نفسه، ويجعله أقلَّ من أن يكون قادراً على التعبير عمّا يفخر به، وفي هذا السياق يبدو المكان منطلقاً للفخر ومنتهى.

إن فخر المسيطير بالمكان لم يكن اعتباطياً، بل جاء نتيجة عواطف منفعلة ألهبتها مشاعر الحب والفخر، فكان المكان أشبه بالينبوع الذي يستمد منه

(١) المصدر السابق، ص ١٢٣ – ١٢٤.

الشاعر بواعث فخره وتباهيه[1].

ويمكن أن نعدّ **دلالة الحزن** من أبرز الدلالات النفسية التي تجلّت في اختيار الشاعر للأمكنة أو تعبيره عنها، إذ يقول متألماً لما حلّ بالحرم المكي على أيدي طغمةٍ مما تنكبوا جادة الحق، وساروا في مسالك الشيطان، فلم يراعوا حرمةً للمكان ولا الزمان، فأزهقوا أرواحاً بريئة، وأرهبوا أنفساً آمنة[2]:

هــذه الفتنــة مــن أيــن أتت ... في خيـوط الفجـر والفجر ضيـاء
تنـثـر الـرعـب على أيمـاننـا ... وتنـادينـا بـأصـوات الفنـاء
تقـذف الموت جحيمـا ملهبـاً ... بحمـى الله وأمــن الأمنــاء
الحمى الآمـن مـن روّعـــه ؟ ... والحجيج الطهر في أعلى الصفـاء
والمطـاف السمــح من أين لـه ... صخب القتـل وغوغـاء الدمـاء
جـلّ ربّ البيت من سفــاكــة ... تقتــل الحـقّ وترمـي الأبريـاء

فرغم أن هذه الأبيات تتحدث عن جريمة في حق الإنسان، إلا أن الشاعر سلك في التعبير عنها مسلكاً آخر، وهو وصف المكان الذي شهد الجريمة، وقد تجلى في الوصف مفعولاً به أو مجنياً عليه، وهنا نلحظ كيف أنسن الشاعر المكان من خلال وصفه بالسمح، والسؤال عمّن روّعه، وفي هذا دلالة على الارتباط الوثيق بين انفعالات الشاعر والمكان.

وتظهر هذه الصورة بشكل أكثر وضوحاً في قصيدته عن سراييفو، التي

---

(١) ينظر : المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ٩٢هـ – ٤٢٢هـ، د. محمد عبيد السبهاني، ص ١٠٢.

(٢) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٢٤ – ٢٥.

عاث فيها الصرب فساداً، وأذاقوها صنوف الظلم، وألوان العذاب، من إبادات جماعية، وتطهير عرقي، وقتلٍ، وتشريد، يقول المسيطير(١):

غـــداة الـــروع نلقـــاكِ ... علـى أشـــلاء قتـــلاكِ
ونسكب دمعـــــة حـــرّى ... علـى أنقـــاض ذكـــراكِ
سرايـيفـــــو إذا جئنـــا ... نعـــزّي في صبـــايـــاكِ
وننشـــد أمـــة ثكلـــى ... تحـــدّث عـن ضحـــايـــاكِ
متى يـــا مـــوطنـــي الغالـــي ... نهـــب ليـــوم لقيـــاكِ
ونفتـــح أعينـــاً فـــاقـــت ... علـــى أنّـــات جـــرحـــاكِ

وحين توالت النكبات على أرض الرافدين، وجدنا المسيطير ينظم قصيدة بعنوان "الفرات"، تفيض بالألم والحزن على ما حلّ بالعراق وأهله، وتحاول جاهدةً استنهاض الهمم؛ لعل الماضي المجيد يعود، وتعود معه أمتنا إلى الصدارة، ومن أبيات تلك القصيدة(٢):

فمن لي بـدار سلّـط الجور سوطـه ... عليهـا وأملـى شرطـه وهـو راكـع
ومن لي بشعب ساقه الخسف عنْوة ... ونـادى بـه للمـوت شـارٍ وبـائـع
متى يا عراق الأهل تبدو رسالة ... تعيد إلى الإسـلام مـا هـو ضائـع
وتبني لنـا في كـل صقـع منـارةً ... تنـادي هلمـوا والكمـاة هـواجـع

نلحظ هنا كيف اســتفتح الشــاعر التعبير عن العراق بالدار، في محاولة لتعزيز البعد المكاني، الذي يراه الأكثر مناســبة لكتابة انفعالاته حول المواقف والأشياء من حوله، وإذا كانت الدار التي "سلط الجور سوطه عليها" وصفاً

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٧ – ٢٦٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٤١ – ٢٤٢.

لواقع العراق، فإن المستقبل الذي يريده للعراق تجلّى هو الآخر في صورة مكانية مثّلها البيت الأخير بقوله : "وتبني لنا في كل صقع منارة".

ومن الدلالات النفسية للمكان في شعر المسيطير **دلالة الحنين**، وتأتي غالباً في ذكر الشاعر للأماكن التي ارتبط معها بذكريات خاصة –وهي الغالب على شعره–، من ذلك قوله عن مدينة الرياض[1]:

الرياض الأُلى نحِنّ إليها ... فيطيب من عذبها كل مورد
ملأت بالفتيق صدر ربانا ... بصنوف من حسنها المتفرّد

والحنين هنا يبدو فاتحة لانفعال الشاعر تجاه الرياض، بدلالة "فيطيب"، و "ملأت"، و "من حسنها المتفرد"، إنّ الحنين هنا يتولد في رحم ذاكرةٍ تختزن الماضي في شرائح مكانية، وتنطلق منها في التعبير عن الذات والآخر والحياة بشكل عام.

ويبلغ الحنين مداه في قصيدته وادي البطاح حيث يرتبط المكان بعاطفة الحب، ويفتح باب التذكر والحنين إلى حدّ التألم، فهذا المكان –في نظر الباحث– مرتبط بوجود الصاحبة أو الحبيبة، ومن ثم فإن الشاعر يعشق المكان / وادي البطاح، كما يعشق تلك الحبيبة وما لهما من ذكريات مرتبطة بهذا المكان، حتى كأنّ هذا الوادي أصبح بمنزلة المعادل الموضوعي للحبيبة، وهو ما جرت عليه عادة الشعراء قديماً، كما نجد في كثير من شعر الأندلس[2]، يقول

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٠ – ١٣١.

(٢) ينظر : المكان في الشعر الأندلسي، عصر ملوك الطوائف، د. أمل محسن العميري، ص ٣٥١ – ٣٥٢.

المسيطير[1]:

فللحبّ في وادي البطـاح هواتف	**سقتنا من اللذات حلواً وعلقما**
شربنا كؤوس الحب شربة وامق	**وعلّ لنا الساقي من الشهد مترعا**
براني الجوى والشوق حتى كأنني	**خُلقت جوىً محضـاً وبتّ متيمـا**

ومثل هذه النغمة نجدها كثيرا مع الأمكنة الطبيعية، كما في قصيدته عن جبل خزاز، إذ يقول[2]:

كم ذا نَحِنُّ إلى الأيـام يجمعنـا	**دهـرٌ ببهجـة أفيـاء ووديـان**
والعـاقلي تناجينـا أبـارقـه	**وفي القشيع ذرى من ظل غيران**
وكيرُ تدعـو الورى دومـاً خياشمـه	**وفي خزاز هدى من طود بنيان**
لله عهـد تقضّـى مثـل زاهيـة	**تاهت بلـذة أحـلام وأزمـان**
كأنّنـا وديـار الحـيّ تجمعنـا	**قلب تكنّفـه للحبّ جنبـان**

وفي هذا النصّ نلحظ كيف تمدّد المكان بالقياس على ما سبق، وأصبح تفاصيل متعددة، مرتبطة بحالة شعورية ضاغطة، قائمة على الحنين للعهد الذي ربطه بالمكان، وقد أجاد الشاعر حين كثّف هذه الحالة في البيت الأخير من هذا المقتطف، حين شبّه أيام عهده بتلك الديار بقلب غشاه الحبّ.

وقد يتجاوز الشاعر في تناوله للمكان منطقة الحديث عنه والاحتفاء به، إلى أن يكون مشاركاً في الحديث والكتابة، يقول المسيطير مخاطباً وادي الرّمة[3]:

يا أيها الوادي الذي مرّت به	**حقب السنين تُديرهـن دوائـر**

(١) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٣٠ – ٣١.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٤٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٥ – ١٦٧.

قل لي عن الأيام كيف رأيتها	**دولاً توالى كرّها وتغاير**
قل لي عن الماضين كيف تحملوا	**صور الكفاح تشيب فيه غدائر**
وعن الأُلى تاه الزمان بمجدهم	**دانت لهم في الخافقين قياصر**
حدّث عن الدنيا وما مُلئت به	**هم وتصميم وجدّ عاثر**
اقصص لي الأيام كيف تقلّبت	**بالسالفين أوامر وزواجر**

فالأبيات السابقة تنهض على ثنائية الماضي والحاضر، فالشاعر يخاطب مكاناً أحبّه، واحتفظ له بجملة من الذكريات، ومن هنا جاء النداء، وتوالت الأسئلة التي لا يملك الإجابة عنها إلا ذلك الوادي، فبدلاً من أن يكون المكان / الوادي مكتوباً عنه، صار جزءاً مشاركاً في الكتابة.

ولا تقتصر الدلالات النفسية للمكان في شعر المسيطير على ما سبق، بل نجد كذلك **دلالة القلق** التي غالباً ما ترتبط بالأمور المستقبلية، فهي بعكس دلالة الحزن التي تتكئ في منطلقاتها على الأحداث الماضية، وهنا تجدر الإشارة إلى أن بعض قضايا الأمة الكبرى كقضية فلسطين –مثلاً– يمكن أن تتقاسمها أكثر من دلالة، ذلك أنها وإن كانت إلى الحزن أقرب، إلا أن مستجدات الأمور على صعيد الساحة العالمية، قد تشعر بالقلق أيضاً، وهو ما تجلّى في قول المسيطير(١):

قلوب أهلي على الأوطان محدقة	**وعن فلسطين عين القوم لم تنم**
الدار داري وأرضي كيفما خلقت	**والأهل أهلي وذاك الطود من علمي**
والحقل حقلي وغرسي في يديَّ وقد	**سقيته بدمي أو نهري السجم**

(١) المصدر السابق، ص ٣٥٣ – ٣٥٤.

لا أستهين ولا أبغي بها بدلاً ولا أقامر بالأدنى من القيم

لقد بدا الشاعر منتمياً إلى فلسطين –في هذه الأبيات– من خلال الارتباط بالمكان والأرض "داري"، و "أرضي"، و "حقلي"، وغيرها، وقد عبر بهذا الارتباط المادي / العضوي عن مدى القلق الذي ينتابه على أمر فلسطين، فهو بعض أمكنتها، وقد سقاها بدمه المتدفق كالنهر، وهو لا يريد بها بدلاً، ولا يتنازل عن قيمة الانتماء إليها، نحن إذن بإزاء صورة يغذّيها القلق من الآتي، ومما سيؤول إليه أمر فلسطين.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الدلالة النفسية التي أشرنا إليها في هذه الجزئية، بمثابة القشرة الخارجية، أو العلاقة التي يشفّ عنها الغرض الشعري أو المعنى، وليست دلالة نفسية عميقة تسهم في صناعة رؤية شعرية، أو التعبير عن موقف من الذات أو الحياة، وكذلك الأمكنة فهي محدودة أو غير محدودة– بمثابة الإطار العام الذي لم يحظ بتجربة شعرية تنفذ إلى أعماقه وتعيد صياغته، أو تعبّر عنه بشكل جمالي.

ثانياً : الدلالة الاجتماعية

تحضر الدلالة الاجتماعية في هذا السياق، من خلال كمٍّ كبير من الأمكنة التي وظفها المسيطير في تعبيره عن تفاعله مع المجتمع، حيث تناول في جملة من نصوصه العديد من أحداث المجتمع وقضاياه[1]، ولعل التطوّر الاجتماعي أحد

(١) تناول الشاعر في مجموعته الشعرية الكاملة (ليالي العمر) عدداً من أحداث مجتمعه وقضاياه، ومنها على سبيل المثال :

أهم المسارات التي تشكّلت فيها الدلالة الاجتماعية، كما في قصيدته التي نظمها بمناسبة مرور عقدين على تولي خادم الحرمين الملك فهد مقاليد الحكم في هذه البلاد، وضمّنها الإشارة إلى التوسعات الهائلة التي حظي بها الحرم المكي والمسجد النبوي، وفي ذلك يقول[1]:

عصر البناء على العشرين راسية ... لها الوفاء مجيد دونه العظم
والتوسعات عطاء شاهد فطن ... للمسجدين يكون البذل والهمم
في طيبة النور نهر من روافده ... روح من الخلد يشفى عندها الألم
تعلو مآذنها الساحات داعية ... إلى السلام فلا همّ ولا وهم

فالمكان في هذه الأبيات ليس مقصوداً لذاته، بل هو موظّف في سياق شعري غايته الاحتفاء بما أنجزه الملك فهد بن عبدالعزيز –رحمه الله– في جميع المستويات، مما كان له أثر في تطور المجتمع، ولذلك أطلق على العصر كله

– قصيدة "الحمى الآمن"، ص ٢٤، ومناسبتها : أحداث الحرم في عام ١٤٠٠هـ.
– قصيدة "لا تُراعي"، ص ٣٦، ومناسبتها : التفجير الذي وقع في مدينة الرياض عام ١٤٢٥هـ.
– قصيدة "لن تدنس أرضنا من حاقد"، ص ٤١، ومناسبتها : زيارة خادم الحرمين الملك فهد بن عبدالعزيز – يرحمه الله – لمدينة الرس عام ١٤٠٨هـ.
– قصيدة "إليك إليك.."، ص ١٤٢، ومناسبتها : زيارة الأمير سلطان بن عبدالعزيز – يرحمه الله – لمحافظة الرس، بتاريخ ١٦ / ٥/ ١٤١٩هـ.
– قصيدة "مواكب في ركب الحياة"، ص ٢٢٤، ومناسبتها : افتتاح خط الرياض الحجاز، على شرف صاحب الجلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز – يرحمه الله – عام ١٣٨٦هـ.
وغيرها الكثير من الأحداث والمناسبات المختلفة التي تمتلئ بها جنبات الديوان.
(١) ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٣٤٨ – ٣٥٠.

عصر البناء، والبناء من أهم العوامل المنتجة للمكان.

وفي قصيدة أخرى يقول مشيراً إلى أبرز ملامح النهضة التي تعيشها هذه البلاد[١]:

همم تسمو وأمجاد لها ... رفرفات النصر تعلو عنفوانا
قوة تبني حياة حرّة ... ومواساة بلا منّ قُرانا
ملأت قلب الصحارى خضرة ... بات من نشوته القفر جنانا

في الأبيات السابقة نجد الإشارة إلى انعكاسات النهضة على المجتمع، ممثلة في النصر، والقوة، واستحالة الصحاري والقفار إلى جنانٍ خضراء، ويجيء المكان في البيت الأخير معبّراً عن كل ما سبق من خلال المقابلة بين الصحارى الجرد والحدائق الغنّاء.

ويتأصل الاعتماد على المكان في التعبير عن التغير الاجتماعي بمعناه الشامل في كثير من قصائده، ومنها – مثلاً – قوله[٢]:

لغة الأمس يا رياض المعالي ... ونشيد الزمان من كل منشد
صورٌ من مفاخر اليوم تحكي ... صولة الأمس في بناء معمّد
لمسات من الجديد صُواها ... تأسر اللّب سابحاً ومقيّد
راح عبدالعزيز يعلي ذراها ... رافعاً أمنها على كل قردد

وقد يسوغ لنا إدراج إحدى الجزئيات المهمة في الدلالة الاجتماعية، وإن بدت بعيدة في الظاهر، ونقصد هنا توظيف القصيدة في التعبير عن صوت المجتمع حيال بعض القضايا المحلية والعربية والإسلامية، واتخاذ المكان بأنماطه

(١) المصدر السابق، ص ٤٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٨ – ١٢٩.

المتعددة مدخلاً للتعبير عن هذا الصوت، ويتجلّى هذا في مثل قصيدته التي كان باعثها الحدث الإجرامي الذي وقع في الحرم المكي مطلع عام ١٤٠٠هـ، يقول المسيطير(١):

هـذه الفتنـة من أيـن أتت ... في خيوط الفجر والفجر ضياء
الحمى الآمـن مـن روّعـــه ؟ ... والحجيج الطهر في أعلى الصفاء
والمطاف السمح من أين لـه ... صخب القتل وغوغاء الدمـــاء
جلّ ربّ البيت من سفاكـة ... تقتل الحـقّ وترمـي الأبريـاء
وتعـالى الله عمـا اقترفـوا ... في حمى الركن وينبوع الشفـاء

فمع أن القتل هنا استهدف الإنسان، وهو من مات بسببه أو أصيب، بل هو الطرف الأكثر أهمية في هذا المشهد، فإنّ الشاعر اختار –تبعاً لمنطق تجربته– أن يعبّر بالمكان عمّا أصاب الإنسان، ولذلك جسّد المكان، وأعطاه صفة الشعور، وصفات أخرى إنسانية، وهذا ما نجده في قوله : "من روّعه ؟"، و "والمطاف السمح".

وفي حادثة انهيار مبنى المدرسة الابتدائية للبنات ببلدة جلاجل عام ١٣٩٧هـ، تلك الحادثة التي راح ضحيتها عدد من الطالبات والمعلمات، قال شاعرنا متحدثاً عن تلك الفاجعة الأليمة(٢):

عـزاءً في ديـاجـير الليـالـي ... وصـبراً يـا جـلاجـلُ في النـزالِ
وآهـــاً ثـم آهـــاً من قلـــوبٍ ... تمـزّقهـا الفجيعـة شـرّ حـالِ

(١) المصدر السابق، ص ٢٤ – ٢٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٥.

وتعصرها على الأكباد عصراً ... تريق حياتها تحت الرمالِ
وتمطرها المصائب من مصبٍّ ... أشاع الرّعب في الزمن المحالِ

فالمسيطير – فيما سبق من أبيات – يتفاعل مع فاجعة جلاجل، وهذا التفاعل يظهر من خلال حديثه إلى المكان / جلاجل، الذي لا يعدّ مكاناً عابراً، بل ظرف من القلوب المتألمة، والأكباد المتفطّرة.

وقد يشكّل البعدان الزماني والمكاني منطلقاً لتفاعل الشاعر مع الحدث، وهو ما يتجلّى بوضوح في القصيدة التي قالها منددا بالأحداث الإجرامية التي قادتها بعض الجماعات المتطرفة على أرض الجزائر، حيث تجاوزت أربعين بيتاً، ومنها[1]:

ماذا جرى يا دولة الإسلام ... في عالم النكبات والآلام
هل أذنب الغافون يوم تساقطوا ... في ظلمة الليلات والأعتام
خمسون عاماً والجزائر محنة ... سوداء تغزو العدل دون ذمام
صور من البؤس الأليم وعالم ... يقضي له الطاغوت دقّ عظام

فالشاعر يحدّد تفاعله مع هذه الأحداث من خلال الاعتماد على البعدين الزمني (ظلمة الليلات، خمسون عاماً)، والمكاني (الجزائر)؛ ليكونا معاً إطاراً للتعبير عن انفعاله تجاه هذه الأحداث الممتدة.

وربما كان هذا الشكل من التعبير أكثر وضوحاً في قصيدة أخرى تناول فيها بغداد وما حلّ بها، حيث يقول[2]:

ماذا ألم بأرض الرافدين شقاً ... يحلّ أم لعنة نادى لها العدم

(١) المصدر السابق، ص ٣٥٦ – ٣٦٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٣٧ – ٣٣٨.

وأيّ جُرم لدار العلم يحرقها ... في المبكيات دخيل مجرم أثم
فلملمي الجرح يا بغداد في زمن ... تسيل فيها جراح كلها كلم
فصابري إن في الضراء مكرمة ... حيناً تجيء بها الأفراح والحكم

فبغداد تتجلّى هنا في مفردات معبرة عن المكان (بغداد، أرض الرافدين، دار العلم)، وكل ما يتعلق ببغداد من أحداث وشخوص وقيمة، نراه ينفذ إلى القارئ من خلال هذه القناة المكانية، مما يؤكد أهمية المكان في تجربة المسيطير الشعرية، وأهميته في التعبير لا عن خلجات نفسه الخاصة وحسب، بل حتى عن القضايا العامة التي يتعرض لها الإنسان في مشرق الأرض وغربها، وكأنّ الأمكنة هي المجال الإبداعي لهذا الشاعر، ولا فرق بين طبيعي منها ومصنوع، ولا بين قريب منها وبعيد، ولا بين خاص منها وعام.

***

الخاتمة

بعد هذا التطواف الذي عرضنا فيه للمكان في شعر محمد المسيطير، نخلص إلى عدد من النتائج، التي ربما كان من أبرزها :

١- تعامل الشاعر مع المكان -في الغالبية العظمى من نصوصه- بوصفه كياناً واقعياً، له أبعاده الجغرافية، مهملاً -إلى حد كبير- ما يطلق عليه شاعرية المكان، ولقد حضر المكان بشكل واضح وبارز في أشعار محمد المسيطير، وهذا الحضور بدأ من العتبات، وأعني هنا -تحديداً- عتبة العنوان، فكأنّ الشاعر بهذا أراد أن يكون المكان منطلقاً ومَعيناً يمدّ تجربته الشعرية ويغذيها، ثم إننا نرى المكان -بعد ذلك- يحضر مستهلاً لعدد من النصوص الشعرية؛ ليكون ذلك مؤشراً هاماً على حرص الشاعر وعنايته به، ثم هو كذلك حاضر في خواتيم جملة من قصائده، وهذا دليلٌ ضمن مجموعة من الأدلة التي تؤكد عناية الشاعر واحتفائه به، وفق المسار التقليدي، أو الرؤية الكلاسيكية للمكان.

٢- يعمد الشاعر في عدد من نصوصه الشعرية إلى محاورة المكان، وسؤاله، وندائه؛ ليكون ذلك كله وسيلة للتعبير عن خلجات نفسه، ورؤيته لذاته وللحياة، وتفاعله مع الزمن وما حواه من وقائع وأحداث وتطلعات.

٣- يلحظ القارئ لأشعار المسيطير أن المكان العام يحضر بشكل مباشر أحياناً، وأحياناً أخرى يحضر من خلال الرمزيات التي يحملها ذلك العنوان، أو من خلال الإحالات التي يفضي إليها، ومن هنا يمكن أن نقول إن التاريخ والأدب والفن من أهم العوامل الرئيسة التي غذّت هذا النوع من

الأمكنة في تجربة المسيطير الشعرية.

٤- تكاد تنحصر الأمكنة الخاصة التي وردت في شعر محمد المسيطير في تلك التي ارتبط بها الشاعر ارتباطاً مباشراً، إما بإقامة أو زيارة أو نحوهما، وهي تنقسم في الجملة قسمين : أماكن ذات قداسة، وأماكن غير مقدّسة، كما أن هذه الأمكنة تُعرض فقط، دون أن يكون لها أدنى توظيف، كما أنها – في الغالب– تقف عند حدود الاسم، دون أن تدخل في سياق وصفي، أو تتصل بجانب وجداني أو مشاعري.

٥- يتنوّع المكان الطبيعي في أشعار المسيطير ما بين الجبال والأودية والرياض، ويسعى الشاعر في عدد من نصوصه إلى جعل المكان الطبيعي مُمثّلاً للنقطة الأخيرة، بحيث نراه يحفر في كل أبياته حتى يصل إليها فيغلق بذلك قصيدته، وهذا ما يجعلنا نعدّ المكان الطبيعي في تجربة المسيطير الشعرية مبتدأ للطاقة الشعرية ومنتهى لها في آنٍ واحد، وبهذا يمكن أن نفسّر ندرة المكان / البيت في شعر المسيطير.

٦- على الرغم من حضور المكان المصنوع في شعر المسيطير، إلا أن الشاعر يحرص في عدد من قصائده على تقليص المسافة بين المكان الطبيعي والمصنوع، والنظر إليه على أنه امتداد للطبيعة بما حوت من مكونات جمالية متعددة.

٧- تتعدّد دلالات المكان في شعر المسيطير، ولكنها –في الأعم الأغلب– لا تخرج عن نطاقي الدلالة النفسية والاجتماعية، فالشاعر لا يورد الأماكن من باب الصدفة أو العبث، وإنما نتيجة لوضع نفسي واجتماعي، وهذا

الوضع قد يكون متعلقاً بذاته أو بالمجتمع.

٨- تتجلّى الدلالة الاجتماعية في أشعار المسيطير المرتبطة بالمكان من خلال حشد الشاعر لكمٍّ كبير من الأمكنة التي وظفها ليُعبّر من خلالها عن تفاعله مع مجتمعه، بحيث نرى المكان -في بعض نصوصه- ليس مقصوداً لذاته، بل هو موظّف في سياق شعري غايته الاحتفاء بمناسبات وأحداث مرتبطة بذلك المكان.

٩- تجدر الإشارة إلى أن المشكلة الكبرى عند شعراء النظم -بشكل عام- هي الاعتماد على فكر سطحي -في الغالب- بمعنى أن معظم المشاهدات والتعبيرات سطحية غير نافذة إلى الأعماق، ومن هنا فإننا نلاحظ أن حركة المكان في شعر المسيطير، تستحضر أماكن يمكن أن نُحلّ غيرها مكانها دون أن يتغيّر المعنى، ومن ثم ينعدم التمثيل العميق للأمكنة في هذا النوع من التجارب الشعرية، والتي تنتمي إليها -بطبيعة الحال- تجربة المسيطير الشعرية.

١٠- وبعد استعراض النتائج الفرعية السابقة، نخلص إلى أن الشعر في مرحلة البدايات ينطلق من منطلقات مباشرة وتقريرية، تتعامل مع الأشياء تعاملاً خارجياً، لا يملك القدرة ولا الرغبة على النفاذ إلى أعماقها.

من هنا تأتي التجارب الشعرية المكونة لمرحلة البدايات تقريرية، إلى الحد الذي يمكن معه وصفها بالنظم لا بالشعر؛ ولذلك تشفّ هذه التجربة عن منطلق واضح وارتباط بالمناسبة، ودوران على القيم الجمعية، وأيضاً -وهو المهم في هذا السياق- الارتباط بالماديات على حساب المعنويات، وهو ما وجدناه

عندما تتبّعنا الحضور الواسع للمكان في شعر المسيطير؛ إذ إن سعة المكان في شعره لم تُسند بسعة في الرؤية ولا في التناول، بل ظل المكان في شعره وفياً لصورته المادية (غير الشعرية)، حتى كأنه منطلق لكتابة الشعر لا يتجاوز البداية إلى تشكيل رؤية شعرية تنعكس على الأدوات، وتلقي ظلالها على حالة التلقي أو التفاعل.

***

ثبت المصادر والمراجع

أ- المصادر :

- ليالي العمر، المجموعة الشعرية الكاملة، محمد بن عبدالله المسيطير، مطابع الرسالة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ — ٢٠٠٨م.

ب- المراجع :

- أسس النقد الأدبي عند العرب، د. أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٦م.
- أنا والشعر، شفيق جبري، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م.
- التعريفات، للجرجاني، حققه وقدّم له ووضع فهارسه : إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، القاهرة، (د.ت).
- جماليات المكان، اعتدال عثمان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م.
- خاتمة القصيدة في القرن الرابع الهجري في العراق والشام، د. عبدالرحمن بن صالح الخميس، النادي الأدبي بالرياض، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.
- الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، د. باديس فوغالي، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، أربد، الأردن، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ — ٢٠٠٨م.
- الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي، د. حيدر لازم مطلك، دار الصفاء للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ — ٢٠١٠م.
- شعرية المكان المقدّس، دراسات في الشعر السعودي، د. حافظ المغربي، النادي الأدبي بالرياض، ١٤٢٧هـ.
- الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى، د. عبد القادر الرباعي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
- صورة المكان في شعر عزالدين المناصرة، زايد محمد الخوالدة، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ — ٢٠١٢م.

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق : د. محمد قرقزان، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، حققه وعلّق عليه ووضع حواشيه : عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- مدخل إلى دراسة العنوان في الشعر السعودي، د. عبد الله بن سليم الرشيد، نادي القصيم الأدبي، بريدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- معجم بلاد القصيم، محمد بن ناصر العبودي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ — ١٩٩٠م.
- معجم معالم الحجاز، عاتق بن غيث البلادي، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م.
- المكان في الشعر الأندلسي، عصر ملوك الطوائف، د. أمل محسن العميري، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص ١٢٠ — ١٢١.
- المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ٩٢هـ — ٤٢٢هـ، د. محمد عبيد السبهاني، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ — ٢٠١٣م.
- المكان في شعر البردوني، دراسة موضوعاتية، خالد بن عبدالعزيز اللعبون، مطابع الحميضي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ — ٢٠١٤م.

***